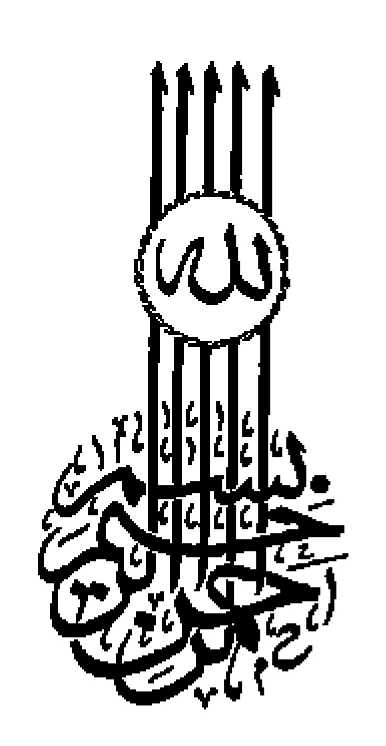
أحمد بهجت



فرعون.. والطغيان السياسي




فرعون..
وَالطّغيَان السِّيَاسِيّ

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

العصر الحديث
للنشر والتوزيع
تليفون : ٨١٤٧١٦
٨١٤٦٩٧
ص. ب : ١٤/٥٦٤٥
بيروت - لبنان

أحمد بهجت



والطغيان السياسي

العصر الحديث
للنشر والتوزيع

مقـــدّمَة
و
إهْـدَاء

يحتل «فرعون». . . مكاناً بارزاً في تـاريخ الـطغاة في الأرض.
ويمكن القول دون تردد إنه قد احتل مكانه هذا بجدارة واقتدار. . إنه يتقدم قومه يوم القيامة إلى النار. .

ولا ريب أن موكبه يومئذٍ لن يقل في أبهته وزينته عن موكبـه في الدنيا. .

مع بعض الفروق البسيطة والجوهرية. .

إنـه سوف يستبـدل بملابسـه الفاخـرة المطرزة بـالذهب، ثيـاباً جديدة من القطران المشتعل. .

وبقدر ما كان زهو الكبرياء علامة لموكبه أثناء حياته في الدنيـا، سيكون ذل الانكسار غلالة تلف موكبه في الآخرة. ذلك أن فرعون لم يكن إنساناً عادياً. . ولا كان طاغيـة بسيطاً، ولا كـان جباراً إذا أثـار أحداً وأغضبه أحد. . لم يكن فرعون هذا كله. .

كان طاغية مركَّباً. . وجباراً طوال الوقت. .

كـان ملكـاً عـلى مصر. . حين كـانت مصر أكـبر دولـة في الأرض. .

ولقد قال كلمته الشهيرة التي سجلها القرآن. .

﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾. .

كان المتصور وقد آتاه الله الملك أن يستحي ويشكر. . ولكنه لم يفعل. . وفعل العكس تماماً. .

لقد استكبر وعلا في الأرض. . وظنّ أنه أوتي الملك على علم عنده، وبسبب الدماء النبيلة الزرقاء التي تجري في عروقه، كما ظنّ قارون أنه أوتي ثروته على علم عنده. .

ورجح هذا الظن لديه، ما كان يجده من نفاق وزرائه وقادة جنده. . وطاعة الشعب وخنوعه. .

والحق أن فرعون قد ابتلع الشعب المصري كله في جوفه. .

على امتداد مصر كلها لم يكن هناك رأي سوى رأيه هو، ولا كانت هناك مشيئة باستثناء مشيئته هو، ولا كانت هناك إرادة غير إرادته هو. .

باختصار. . ذاب الشعب المصري كله في إرادة فرعون. . وصار فرعون هو مصر، وتحولت مصر إلى فرعون. .

وهذا أول ما يفعله استبداد الطغاة بالشعوب. .

إنه يعدم إرادة الناس. . ويجهز عليها. . ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته كإنسان.

وهذا ما فعله فرعون موسى بشعب مصر. .

وسوف نلاحظ هنا أن كل الأنبياء أرسلوا إلى قومهم. . أما موسى فأرسل إلى فرعون.

يقول تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾
ويقول تعالى ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾
ويقول تعالى ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾

ويقول سبحانه ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾

أما موسى. . فقد قال له الله عز وجل. . ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾. .

وقال تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه﴾. .

لاحظوا أنه لم تعد هناك مصر. .

ولهذا لم يرسل الله عز وجل «موسى» إلى مصر. . إنما أرسله بآياته وسلطان مبين إلى فرعون. .

وكان فرعون يومئذٍ ينوب عن مصر كلها، ويقوم مقامها. .
وهذا هو الاستبداد في صورته القصوى.

ولقد سار فرعون مصر في طريق الاستبداد إلى نهايته، وتجاوز هذه النهاية وأعلن ذات يوم أنه هو الرب الأعلى. .

. . . .

لا أحد يدري أي أفكار سوداء عبرت رأس فرعون وقادته يوماً إلى أن يقف ويأمر بحشر الناس واجتماعهم، ليعلن عليهم آخر أخباره الجديدة. . في عبارة مختصرة وقاسية تقول ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. . .

وهكذا قفز فرعون قفزته الأخيرة في الظلام، وأفصح في النهاية عن نيته وقصده. . وكان ما فعله يتسق كل الاتساق مع منطقه في الاستبداد والطغيان. .

. . . .

أين كان الشعب المصري؟

أين كان المثقفون فيه وأهل الرأي والحكمة؟

سؤالان يطفوان على سطح المياه التي سوف تبتلع مجد فرعون بعد قليل. . .

. . . .

أين كان الشعب المصري؟

إن الجواب على هذا السؤال يسير. . لقد كان الشعب المصري في جوف فرعون. .

لقد أفسد الطغيان فطرته. . وأذله الخوف والقهر. .

ومن ثم فقد مضى الشعب يأكل خبزه بالجبن، ويتفرج على ما يجري له وما يجري لموسى كأنه يشاهد رواية لا علاقة له بها.

يحدثنا الله تبارك وتعالى في القرآن عن استخفاف فرعون بالشعب المصري. . وطاعة الشعب له. . وهما أمران يثيران العجب!

﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾.

كيف يستخف حاكم شعب بشعبه ثم يطيعونه بعد ذلك؟

إن الأصل المفروض أن يؤدي استخفاف الحاكم بالشعب إلى ثورة الشعب عليه وعصيانه. . أو على أقل تقدير. . . إلى مقاومته سلبياً والامتناع عن طاعته. .

هذا هو الأصل المفروض في أي مناخ طبيعي . . . ولكن حكم فرعون لمصر لم يكن حكماً طبيعياً ولا كان يؤدي إلى مناخ طبيعي. كان الحكم استبدادياً. . قاهراً. . يتعامل بالسيف مع كل رأي معارض أو مخالف أو تفوح منه رائحة المعارضة أو إمكانياتها. وفي الحكم

الاستبدادي تلتوي فطرة الناس . . وتفسد نفوسهم وتتراجع إرادتهم . . ويصبح همهم هو النجاة من القتل . . والعذاب . . والترويع . . والسجن . .

وهذا ما حدث للشعب المصري . .

ومن هنا لم يعد للشعب المصري دور . . ولا عادت له إرادة . . واستوى لديه أن تنكشف له الحقيقة أو لا تنكشف . والدليل على ذلك، ما وقع يوم الزينة .

لقد اتهم فرعون ومن معه موسى بأنه ساحر . . ومن ثم فقد جمعوا له السحرة وتمّ تحديد موعد للقاء . . ووقع هذا اللقاء أمام حشد كثيف من الشعب المصري .

لقد حشر الناس ـ وكان عددهم كبيراً ـ لشهود التحدي بين فرعون وموسى . .

ثم كان ما كان من هزيمة فرعون وانتصار موسى .

وكان ما كان من سجود السحرة ـ وهم علماء الشعب المصري يومئذٍ ـ لرب موسى وهارون . .

وكان ما كان مما قاله السحرة بعد إيمانهم . . .

ووقع هذا كله أمام جموع الشعب المصري المحتشدة . . ورغم ذلك . . لم يتحرك الشعب . .

لم ينفعل . . لم يفعل شيئاً . . ولو أن كل مصري انحنى على الأرض وأمسك طوبة وألقاها على فرعون وجنوده، لو حدث هذا لسقط النظام الفرعوني في مصر وتغير تاريخ العالم . .

لماذا لم يتقدم الشعب المصري لإسقاط فرعون بعد أن تبين له الحق . .

لماذا اكتفى بالفرجة على ما يحدث . . ؟

إن الجواب هنا يكمن في طغيان فرعون، واستبداده، وهو استبداد كان سبباً في «شلل» الشعب المصري وعدم قدرته على الحركة . . رغم اتضاح الأمر وظهور الحقيقة والتأكد من كذب فرعون . .

وهذا أبسط ما يفعله الاستبداد بالشعوب . . إنه يشل إرادتها فيستوي لديها الحق والباطل، ولا تنفعل لها انفعال القبول أو الرفض . .

إنما تكتفي بالفرجة فحسب . . ومن هنا يبيد دورها وينمحي . . ولا يعود لها في تاريخ الفترة السائدة وزن أو قيمة . .

ويبقى السؤال الثاني . . ؟

أين كان المثقفون المصريون وأهل الحكمة والرأي . . ؟

أو بمعنى آخر . .

إذا كان المصري العادي مشلولاً وغير قادر على الحركة، فأين كان المثقف المصري يومئذٍ . . ؟ وأين كان المفكر؟

إن القرآن الكريم يطمئننا إلى وجود المثقفين المصريين، والمفكرين المصريين . . حتى في أحلك عصور الطغيان والاستبداد، ولقد كان طليعة هؤلاء المفكرين المصريين هم السحرة الذين آمنوا بموسى وسجدوا لرب العالمين، ولم يرعبهم التهديد بالصلب في جذوع النخل وتقطيع الأيدي والأقدام من خلاف . . ولا أخافهم القتل . .

ومضوا إلى الشهادة بإيمان وشرف، وكان هؤلاء المفكرين أصلاً رجال يعيشون في صفوف الشعب المصري كما كان لهم وجود في قصر فرعون ذاته..

ولقد حفظ لنا القرآن الكريم صورة رائعة من حوار واحد من هؤلاء المفكرين المؤمنين الذين كانوا يعيشون في بيت فرعون ذاته.

ولقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا الرجل في سورة غافر بقوله سبحانه:

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾

كما أشار إليه في نفس السورة بقوله تعالى **﴿وقال الذي آمن﴾**.

....

يقول تعالى في سورة غافر:

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال﴾.

تكشف الآيات في البداية عن رد فعل فرعون وهامان وقارون على آيات الله التي جاء بها موسى..

لقد اتهموه بالسحر والكذب، فلما أثبت لهم أن ما جاء به هو الحق كان رد فعلهم هو القتل..

قتل أبناء الذين آمنوا معه.. واغتصاب نساء المؤمنين..

وهذا هو رد فعل الطغاة على الحق دائماً..

القتل والاغتصاب..

وتصاعد الموقف أكثر حين قرر فرعون قتل موسى. . وكانت حجته التي ساقها لتأييد قراره متهافتة وبلا منطق. .

﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾.

. . . .

كان فرعون يرتدي قناع المصلحين وهو يصدر قراره التاريخي، وها هو يبرر قراره بخوفه من ظهور الفساد في الأرض. وتبديل دين المصريين. . .

كان المصريون يعبدون آلهة متعددة. . كانوا وثنيين. . وكان فرعون يضع نفسه على رأس الآلهة الوثنية التي تعبد، وكان الفساد في ـ تصوره ـ هو عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان. .

أي أن أمن الدولة الفرعونية كان مهدداً. . ومن هنا جاء قرار الفرعون في اجتماع على أعلى المستويات. . اجتماع حضره خاصة الخاصة من الأمراء والوزراء وقادة الجيش. .

وفي هذه اللحظات الحاسمة. . ظهر على مسرح الأحداث رجل مؤمن من آل فرعون. .

رجل كان يحضر الاجتماع وهذا وحده يشير إلى أهميته. .

كان الرجل يكتم إيمانه. . ولكنه لم يستطع أن يكتم كلمة الحق التي صعدت من قلبه وظهرت على فمه. . ومن ثم فقد تكلم أخيراً. .

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه:

ـ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم . . وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه، وإن يكُ صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم؟

إن الله لا يَهْدِي من هو مُسْرِفٌ كذاب . . ﴾

. . . .

وقعت كلمة الرجل المؤمن كالصاعقة في هذا الاجتماع . . لم يكن الرجل موضع شك في ولائه لفرعون، فهو من آل فرعون . . ويبدو أن مقامه الرفيع وعقله الراجح وشخصيته الناضجة أوقفت على الفور فكرة قتل موسى . .

وتحولت إليه الأنظار كلها . . وتركزت عليه العيون مصعوقة قد سمرتها الدهشة . .

كان منطق الرجل القوي يتمثل في سؤال يقول:

ـ أتقتلون رجلاً يقول أن الله ربه . . أتقتلونه وقد جاء من ربكم بالبينات، وأثبت لنا جميعاً أنه رسول بعثه الله وليس ساحراً كذاباً . .

إن هناك احتمالان . . أن يكون موسى كاذباً أو يكون صادقاً. إذا كان كاذباً فعليه كذبه . . فإن كان صادقاً كان معنى هذا أننا في خطر.

لقد توعدنا بعذاب الله . . . وتوعدنا أنه يصيبنا الهلاك لو مضينا في حربه . . فما بالكم بفكرة قتله نفسه.

. . . .

كانت كلمات الرجل المؤمن تحمل كل هذه المعاني وتحمل تهديداً خفياً إلى فرعون . . .

فوجىء فرعون ولم يعلق بشيء . .

وعقد الصمت ألسنة الحاضرين جميعاً من وقع المفاجأة . . .

وتشجع الرجل المؤمن ولانت لهجته ووجه النصيحة إلى قومه قائلاً:

﴿ ـ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض . . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟﴾.

. . . .

كان فرعون أول من استرد جأشه . . تخلص من صدمة المفاجأة وتكلم . .

﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى . . وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد﴾.

وقد عكست عبارة فرعون ملخصاً لأسلوب الطغاة ومنطق المستبدين في الأرض . .

ـ هذا رأيي وهو وحده الحق . .

أليس هذا هو منطق الاستبداد في كل زمان ومكان . . .

كان المفروض بعد كلمة فرعون أن يصمت الرأي الآخر . . رأي الرجل المؤمن . . ولكن هذا الرجل لم يكن ليتوقف عن الحديث بعد أن بدأ . .

وهكذا مضى الحق يتلألأ في كلماته الطيبة . . وهو يحدث قومه شأن المثقفين والمفكرين عن أحداث التاريخ وعبرته . .

﴿وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب،

مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد. ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما لـه من هاد. ولقـد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم بـه حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً، كذلك يضـل الله من هو مسـرفٌ مرتاب﴾.

. . . .

وهكذا كشف الرجل المؤمن عن إيمانه.. ومضى يتحدث..

وتجاهل فرعون حديث الرجل الذي آمن، والتفت إلى هامان ـ وكان يحضر الاجتماع التاريخي ـ وألقى بمفاجأته الكبرى..

﴿وقال فرعون يا هـامان ابن لي صرحـاً لعلي أبلغ الأسبـاب، أسباب السماوات فأطَّلِعَ إلى إلَه موسى وإني لأظنه كاذباً﴾.

أراد فرعون أن يصرف القلوب والأنظار عن الحق المبين الـذي جاء به الرجل المؤمن.. وكانت طريقته في ذلك مضحكة وهزيلة.

لقد أصدر أمراً إلى هامان أن يبني له صرحاً يصل إلى السماء.. حتى يصعد فرعون فيه وينظر إلى إله مـوسى... وهو واثق كـل الثقة من كذب موسى..

وبهذه النهايـة الهزليـة أنهى فرعـون اجتماعـه الخطير... ولعله أراد بهذه النهاية أن يشوش على كلمات الرجل المؤمن.

ولكن الرجل المؤمن لم يكن ليسكت..

، لقـد انطلق هـذا المفكر المصري الـذي يمثل المثقفـين المصريين

أفضل تمثيل . . انطلق في حديثه يوضح لقومه حقيقة الموقف الذي يواجهونه . .

وكان تحذيره قوياً . . واضحاً . .

ولقد دق أجراس الخطر . . ونهض بالحقيقة رغم ثقلها وحده، وقال كل ما لديه في الاجتماعات التي تلت هذا الاجتماع، بل إنه انتقل من التلميح إلى التصريح، ومن الكلمات المغطاة الحذرة إلى الدعوة المباشرة لله . . . وكشف في حديثه عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة . .

﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾.

. . . .

ولقد أنهى الرجل المؤمن حديثه بتحذير نهائي أفهم قومه فيه أنه يدعوهم إلى النجاة على حين يدعوهم فرعون إلى النار . .

قال الرجل المؤمن ـ كما حدثنا الحق في كتابه العزيز . .

﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جَرَمَ أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار.

فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله. إن الله بصير بالعباد﴾.

. . . .

كشف الرجل المؤمن عن إيمانه . .

وانزعج فرعون انزعاجاً شديداً ولعله أيقن أن ثمة اختراق قد وقع من العدو لبيته وآله . .

إن هذا الرجل المؤمن من آل فرعون . . فكيف نفذ إليه موسى . . هل هي مؤامرة . . ؟

هل هو اتفاق بينهما؟

هل هناك خيانة في قصره؟

هكذا مضى فرعون يفكر . . وانتهى من تفكيره إلى قرار بقتل هذا الرجل المؤمن . .

وهذا هو دأب الطغاة حين يواجهون الحق دائماً . . .

إن عقولهم تسرع إلى فكرة القتل، على حين تسرع أيدي الأعوان إلى التقاط السيوف . .

لكن الله تبارك وتعالى حفظ هذا الرجل المؤمن . .

قال تعالى في سورة غافر ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ .

. . . .

. . . .

. . . .

بعد هذه المقدمة الطويلة،

أهدي الكتاب إلى هـذا الرجـل العظيم المؤمن من آل فـرعون وإلى السحرة المصريين الشهداء . .

لولا هذا الرجل، وبغـير هؤلاء الرجـال، لما وجـدت مصر من يحمل شعلة الحرية والإيمان من عصر إلى عصر . . .

أحمد بهجت

آل فـــرْعَون

﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

لماذا.. آل فرعون.. بالتحديد؟

لماذا يدخلون أشد العذاب..؟

هذه هي القصة التي تحكيها السطور القليلة القادمة.. وهي قصة تستمد مادتها الأساسية من القرآن الحكيم.. لقد قص علينا الحق تبارك وتعالى من أنباء موسى وفرعون، شاهدنا فرعون خلال حواره مع موسى، ومع هامان.. ومع آله، ومع الشعب المصري.. بل لقد شاهدناه مع نفسه.. وأمام ضميره.. وطوال الوقت الذي استغرقه عرض هذه الصور كان فرعون يبدو دائماً نموذجاً كلاسيكياً في الطغيان..

ويسبب هذا الطغيان والاستبداد استحق فرعون مكانه المتميز في النار..

سنسمي الصفحات التالية «آل فرعون» دراسة في الاستبداد السياسي(*).. وسنحاول من خلالها تقديم صورة فرعون في القرآن.

(*) هذا كان عنوان الحلقات التي نشرت في الاهرام.

وبيان السر وراء استحقاقه لهذه الدرجة الخاصة من درجات العذاب . . لقد كان فرعون موهوباً، ولكنه استخدم موهبته في مملكة الظلام، فصار زعيماً من زعمائها . . وجاء ترتيبه الأول . .

وكان أخطر ما فعله فرعون ـ في مملكة الظلام ـ أنه ابتدع في الطغيان وابتكر وتفنن . .

هو طليعة الطلائع إذا تعلق الأمر بالطلائع، وهو السابق باختراع أساليب الاستبداد، وهو المسؤول عن تطويرها وتعميق مجراها، وهو البادىء باكتشاف أسرارها والعثور على خفاياها . .

ولقد ظل فرعون يصعد سلم الكبرياء حتى وصل نجمه إلى النجوم والسحاب . .

ومن هناك أعلن أنه الرب المعبود . .

ولقد جاء هذا الإعلان تتويجاً لنظام من الاستبداد والاستعباد قضى فرعون ووزراؤه سنوات في صنع هيكله الداخلي وبنائه . .

ستكون مراجعنا هي الآيات التي ورد فيها ذكر فرعون في القرآن، وسنرجع إلى تفسيراتها عند المفسرين، من مراجعنا أيضاً كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي، وقد دفع الكاتب ثمن حبه للحرية حين مات سنة ١٩٠٢ بعد أن دسوا له السم في فنجان القهوة . . سنرجع أيضاً إلى كتاب تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعوني . . لنعرف منه خصائص هذا العهد وصفاته . .

صَيْحَة في وَادٍ

طبائع الاستبداد . . ومصارع الاستعباد .

هذا اسم الكتاب .

وعلى صفحته الأولى كتب عبد الرحمن الكواكبي يقول : «وهي كلمات حق وصيحة في واد . . إن ذهبت اليوم مع الريح . . لقد تذهب غداً بالأوتاد . . » بهذه الكلمات التي تبدأ مقدمتها باليأس وتنتهي بالأمل . . بهذه الكلمات يفتتح الكواكبي كتابه . .

أما الفصل الأول في الكتاب فإن عنوانه سؤال :

ـ ما هو الاستبداد؟

الاستبداد لغة هو غرور المرء برأيه والأنفة من قبول النصيحة ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة ، لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة .

والاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة الفردية ، وبلا خوف من أي تبعة . .

ويقدم الكواكبي تعريفاً للاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات فيقول : إنهم يستعملون في مقام كلمة استبداد كلمات :

استعباد.. واعتساف.. وتسلط.. وتحكم..

وفي مقابلها كلمات:

مساواة.. حس مشترك.. تكافؤ.. سلطة عامة

أما تعريف الاستبداد بالوصف فهو أن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية من حساب ولا عقاب محققين...

وأشكال الحكومة المستبدة كثيرة..

وأشد مراتب الاستبداد هو حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، والحائز على سلطة دينية..

....

لماذا لم يذكر الكواكبي فرعون؟

إن فرعون هو النموذج الكلاسيكي للطغيان والاستبداد..

كان فرداً مطلقاً..

وارثاً للعرش..

قائداً للجيش..

حائزاً على سلطة دينية؟ لم يكن راضياً عنها.

....

لنرفع الستار عن فرعون خلال صعوده سلم المجد الاستبدادي.. وهو سلم انتهى به إلى النار..

فرعون [١]

استيقظ فرعون في هذا الصباح البعيد وهو معتكر المزاج قليلاً، كان يحس بانتفاخ يسير في بطنه، ولقد تجشأ مرتين أو ثلاث مرات وهو في طريقه إلى الحمام الملكي الذي صنع من المرمر. .

ولكنه دخل الحمام وخرج دون أن يوفق. .

خرج عابساً. . مقطب الجبين. . وفكر في استدعاء طبيبه الخاص لعله يعطيه مشروباً يعيد الراحة إلى بطنه. . ولكنه تذكر أن هامان ينتظره في قاعة العرش. .

سار فرعون حانقاً يفكر في هامان وفي طبيبه الخاص ثم توقف أمام تمثال لأحد الآلهة. . وقف أمام التمثال وعبس. .

كان التمثال لعجل أبيس. . معبود المصريين. . وكانت للعجل ثلاث أرجل فقط. . أما الرابعة فكانت قد اختفت. .

سأل فرعون: كيف انكسرت رجل الإله؟

أجابه مدير القصر: كانت الخادمة الجديدة تنظف الإله من التراب فوقع منها على الأرض وانكسرت رجله. .

لم يسمع فرعون ما قاله مدير القصر، رن السؤال الذي خرج

منه منذ لحظات في عقله رنيناً غريباً . .

كيف يكون إلهاً وتنكسر رجله . . تبـاً لهؤلاء المصريين . . كيف يعبـدون إلهـاً لا يـدفـع عن نفسـه الضرر . . في ذهن فـرعــون شيء يصحح هذا الوضع . . يجب تـوحيد الآلهـة جميعاً في إلـه واحد . . إن الملك ـ رغم أنه بشر مصيره إلى الموت ، إلاّ أن له حيـاة أكبر من حيـاة هذه التماثيل العاجزة الباردة . .

سار فرعون وهو يقلب الفكـرة الجديـدة التي راحت تتخلق في ذهنه وتنضج على مهل . .

فكرة الملك الإله .

إن هناك شائعة قديمة بأن دم فرعون يختلف عن دم المصريـين ، بسبب زرقته ونبله ، ولقد بلغت هذه الشائعـة درجة القبـول اليقيني ، ولعله يكون من السهل أن يقفز فرعون هذه الـدرجة الأخـيرة الباقيـة أمامه ، ليعلو على آلهة مصر جميعاً . .

لم تكن الفكرة جديدة تماماً ، وقعت قبل ذلـك في بعض عصور الازدهار العظيم ، وكانت هي خير تعبير عن هذه العصور . .

ما الذي يمنع أن تعود الفكرة؟

إن الساحة المصرية تمتلىء بعشرات الآلهة المعبودة . .

هنـاك القط والعجـل والثعبـان والـذئب . . وهنـاك حـوريس وآمون ورع . .

هذا الانقسام بين المصريين يجب أن يوضع له حد . .

يجب أن يلتقي المصريون جميعاً عند إله يملك النفع والضرر . .

من أكثر من فرعون مالكاً للنفع والضرر. .

من. . ؟

سألها فرعون في سره ثم دلف إلى قاعة العرش. .

فـــرْعَونْ [٢]

دخل فرعون قاعة العرش. .

كـان هامـان جالسـاً فاتنـتر واقفاً ثم انحنى. . انفـرجت جبهة فرعون دون أن تنفرج شفتيه، كان يحب مظاهر الخضوع التي يخلعهـا على المكان بمجرد دخوله فيه. .

أشار فرعون لهامان أن ينهض فعاد هـامان يفـرد ظهره. . عـلى شفتيه ابتسامة تقع بين السعادة والتعاسة. .

ابتسامة تقول إنه سعيد، ولكنه ينتظر أن يكون فرعون سعيـداً ليسمح هو لسعادته بالتعبير عن نفسها. . فإذا كان فرعون تعيساً فهـو أيضـاً تعيس. . أدرك فرعـون رسالـة وزيره هـامـان فقـطب جبينـه، وتـلاشت ابتسامـة هامـان على الفـور. . وحـل مكـانها قلق مشـوب بالتردد.

لبث هامان صامتاً حتى رفع فرعون يده مشيراً له بالحديث.

قال: مولاي الفرعون. . هناك شيء يشغلك؟

تحسس فرعون بطنه ولم يتكلم. .

قال هامان: هل هي بطن جلالتكم مرة أخرى. .

أومأ فرعون برأسه فقال هامان: لماذا لا تجربون يا مولاي شربة زيت الخروع . .

قال فرعون حانقاً: لقد أمرت ألا تذكر شربة زيت الخـروع في وجودي .

سكت هامان وتساءل بنبرة تشي بالانزعاج :

ـ هل أستدعي طبيب القصر . .

تمتم فرعون من بين أسنانه: لو كنت أحتاج إليه لاستـدعيته . . إنني مشغول بأمر أخطر من اضطراب بطني . .

قـال هامـان منافقـاً: ليس هناك مـوضوع أخـطر من سـلامـة فرعون . .

قال فرعون: ليس الموضوع متصلاً بسلامتي بقدر ما هو متعلق بكرامتي . .

قال هامـان: إن كرامـة فرعـون مصر هي كرامـة مصر . . من الذي يتجرأ على المساس بها أو الاقتراب منها . .

قال فرعون: لقد تجرأ الآلهة يا هامان . .

وقع هامان فريسة الحيرة . . مـا الذي يقصـده فرعـون بعبارتـه الأخيرة، انتظر هامان أن يفصح فرعـون عن نفسه، ومـرت ثوان من الصمت قال بعدها فرعون :

ـ ألم تشعر يا هامان بفوضى تعدد الآلهة في مصر . .

تصـور هـامـان أن فـرعـون يشـير إلى صراعـات كهنـة الآلهـة المختلفة . . قال وهو يبتسم :

ـ إن الكهنـة قـد اخلدوا إلى الصمت، واستقـل كـل واحـد بمنطقة نفوذه، ولم يعد هناك من يثير المتاعب. .

قال فرعون وهو يمشي في قاعة العـرش: أنت ساذج يـا هامـان رغم دهائك، في عقلك مناطق غارقة تماماً في الظلمة. . أنا لا أتحدث عن هذا. .

فـرعون [٣]

أراد هـامان أن يسـأل فرعـون عن أي شيء يتحـدث، ولكنـه خشي أن يبدو غبياً أمامه، ومن ثم فقد أنشأ يفكر. . ما الـذي يشغل بـال فرعـون؟ ما الـذي يقصده الملك من كلمتـه الغامضـة عن تعدد الآلهة. . ؟ إن تعدد الآلهة قضية قديمة في مصر. .

لكل منطقة إلهها المعبود، ولكل إله كاهنه الأعلى، ولكل كاهن منطقة نفوذه، وصحيح أن الصراع بـين كهنة الآلهـة لم يتوقـف ولكنـه حسم بوساطة فرعون الأخيرة وتدخله.

كـان هذا منـذ ثلاثـة أشهر ونصف. . ومن هـذا الوقت سـاد الهدوء بين الكهنة وكفوا عن صراعاتهم على مناطق النفوذ. . ما الذي يريده فرعون الآن؟ . . وما الذي يقصد إليه. . ؟

انتظر هامـان أن يفصح فـرعون عن نفسـه ولكن فرعـون ظل يتمشى في قاعة العرش، وهو يمر بيده على بطنه. . لقد أفـاده المشي في قاعة العرش، وهو يحس الآن ببعض الـراحة. . وقف فـرعون وقـال لهامان فجأة:

ـ لقـد قررت تـوحيد الآلهـة المصريـة جميعـاً في إلـه واحـد يـا هامان. . ما رأيك؟

قال هامان دون وعي :

ـ كيف يا مولاي . . ؟

وقف فرعون وقد عاودته آلام بطنه وقال بغضب :

ـ المفـروض أن أقـرر أنـا . . وتبحث أنت عن الكيفيـة يـا هامان . . ألست وزير الملك. ما هي فائدتك إذا كنت أنا الـذي يقرر وينفذ؟

سـطعت الفكـرة في رأس هـامـان . . قـال وهـو يقـترب من فرعون :

ـ هل يتحدث مولاي عن فكرة الملك الإله؟

قال فرعون : بدأت تدرك قصدي . .

قال هامان : ولكن . . هل . .

ثم بدا له أن العبارات التي كانت في عقله قد تطايـرت منه، لم يعرف ماذا يقول . . كان يـريد أن يعـترض . . إن محاولـة التدخـل في مجـال الآلهة المصريـة أمر محفـوف بـالمخـاطـر . . إن اعتبـارات الأمن تفرض أن تترك الحرية لكهنة الآلهة . . كل في منطقته . .

قال فرعون : فيم تفكر يا هامان؟

قال هامان : مولاي الفرعون . . إن فكرة الملك الإله هي فكرة تنتمي إلى أيام قديمة لها ظروفها الخاصة . .

قال الملك : ما الذي يمنع من تهيئة نفس الظروف الآن؟

قال هامان : سيقاوم الكهنة هذه الفكرة يا مولاي .

قال فرعون: هذه مشكلتك أنت يا هـامان. . عليـك أن تغمد خنجراً في صدر كل من يقاوم. .

عليك أن تخمد هذه المقاومة.

صرخ فرعون بعبارته الأخيرة حانقاً.

فــــرْعَوْنْ [٤]

أنشأ هامان يفكر . .

لم يكن في قـرارة نفسه يحب الكهنـة، كان يـراهم كـرجـل من رجال السياسة والحكم غير صـالحين لحكم النـاس، بوصفهم رجـال دين . . بـل إنـه في دخيلة نفسـه كـان يـراهم مغتصبين لجـزء من اختصاصه . . بينما السلطة كلها هي اختصاصه.

لم يكن اقتراح فرعون يثير استياءه . .

أثار الاقتراح دهشتـه، ولكنه كـان في جملته متفقـاً مع هـواه . . ومريحاً للغاية.

إن فكرة الملك الإله تحمل إليه قفزة كبرى.

إنه الآن وزير الملك.

إذا صـار الملك إلهاً صـار هو وزيـر الملك الإلـه . . وهـذا يعني ببساطة أن يتعاظم نفوذه ويزيد سلطانه . .

هـذا هو الجـانب الوردي في المـوضـوع، وهـو أقـل الجـوانب مساحة، وثمة جانب آخـر يشبه ريـاح الخماسين المصرية البشعـة . . ذلك جانب الكهنة . . هناك نفوذهم وأملاكهم ورجالهم وسطوتهم.

مضى هامان يتحسس بـأفكاره جـدار الكهنة، بحثـاً عن نقطة ضعف لاختراقه منها، وتساءل بينه وبين نفسه من الذي يمكن استمالته ومن الـذي ينبغي تنحيتـه من الـطريق ولـو بـالقتـل. . تســاءل من يستسلم منهم ومن يقـاوم. . ورجح هـامان من حسـاباتـه أن تدخـل الحرس الفرعوني سيكون مطلوباً.

أيضاً وضع عامل السرعة في اعتباره.

السرعة والكتمان. .

إن ضرب الكهنــة يجب أن يقـترن بــأكـبر قــدر من السرعـة والكتـمان. . بحيث يستيقظ الشعب المصري عـلى واقــع يختلف عن الواقع الذي تركه بالأمس قبل أن يدلف إلى فراشه. .

استيقظ هامان من أفكاره على صوت فرعون. .

ـ هامان. . لماذا تغمض عينيك. . هل نمت؟

قـال هـامـان: لم أنم ولكنني أفكـر يـا مـولاي. . سيسيـل دم كثير. .

قـال فرعـون بحماس: لقـد بـدأت تفكـر بشكـل صحيـح يـا هامان. . لا بأس. . لقد خلق الدم أساساً ليسيل.

قال هامان: سنلقى متاعب كثيرة. . إذا لم. .

سأل فرعون: إذا لم؟

قال هامـان: إذا لم يتم الأمر بـأسرع من البرق. . إن الكتـمان ضروري جداً لنجاح الرغبة الفرعونية المقدسة. .

ابتسم فرعون وهـو يتمشى في قاعـة العرش. . لاحظ أن المشي

يحمل بعض الراحة إلى بطنه المتعب. . قال لوزيره هامان:

ـ متى تحب أن نبدأ يا هامان. . هل نبدأ الليلة، إن القمر يكتمل هذه الليلة، وللمصريين خرافات كثيرة حين يكتمل القمر. . سنقول لهم. . إن الآلهة التي تعيش في السماء قد استدعت الكهنة إلى السماء لأمر عاجل. لهذا اختفى الكهنة تماماً. .

أعجبت فرعون فكرته فقهقه ضاحكاً. . وعلت ضحكته وراحت ترن في قاعة العرش الرخامية.

فــــرْعَوْن [٥]

دفعت ضحكات فرعون في نفس هامان باكتئاب خفي . . ولكنه نافق سيده في الضحك بأن راح يضحك هو الآخر . .

بدأ ارتياحه يزايله . .

إن فرعون يتحدث عن اختفاء الكهنة تماماً . . هل يعني هذا أنه سيقتلهم جميعاً . . وكيف يتم هذا . .

انتظر هامان حتى انتهى فرعون من ضحكه، ولملم هو أطراف ضحكته وسأل فرعون قلقاً:

ـ يتحدث مولاي عن اختفاء الكهنة جميعاً . . إن فيهم من يمكن استمالته واختراقه .

قال فرعون: أنت تناقض نفسك الآن يا هامان . . لقد تحدثت عن عامل السرعة . . وليس لدينا وقت لاستمالة أحد . . أو اختراقه . .

قال هامان: هل يريد فرعون اختفاء الكهنة جميعاً . . حتى الموالين لنا . .

قال فرعون: هذا أفضل يا هامان . . في الظروف غير العادية

دائماً يكون للحسم ما لا يكون للضعف . .

قال هامان : ليست المسألة أنني ضعفت عن تنفيذ أمر الفرعون، المسألة أن هناك كهنة على استعداد لأن يقبلوا فكرة الملك الإله . . . هؤلاء هل نقتلهم؟

قال فرعون وهو يجلس على عرشه : نعم . . نقتلهم لسوء الحظ . . إن حظهم سيء يا هامان . . ألا ترى ذلك . . إن وجودهم كشهود على ما وقع لا يضمن لنا صمتهم، إن أحداً منهم قد يثرثر . . أو يفلت منه السر . . لماذا لا نحرث الأرض جيداً منذ البداية . . اقتلهم جميعاً.

قال هامان وهو يرتعد : هذا أفضل الآراء يا مولاي . . إن حكمة جلالتكم تخفى علينا في البداية، ولكن التأمل فيها برهة يكشف عن أعماقها الغائرة . . والآن . . إذا قتلنا الكهنة جميعاً . . من الذي يحل مكانهم . .

قال فرعون : سنضع خدم الكهنة مكان الكهنة . . إذا وضعت خادماً فوق قمة لا يستحقها، ضمنت ولاءه إلى الأبد . . أريد أن يتم هذا الأمر بسرعة . .

وسوف يتبع هذا إعلان في المملكة كلها بأن الملك الإله هو الذي يحكم مصر الآن . . وعلى جميع الآلهة الأخرى أن تدرك تبعيتها له . . ومسؤوليته عنها . .

ستبقى الآلهة في تماثيلها الباردة العاجزة . . أما المشيئة والأمر فسوف يخلصان لي كحق من حقوق فرعون .

حق إلهي للملك الإله . .

هل فهمت يا هامان . .

فــــرْعَوْن [٦]

كانت ميزة هامان الكـبرى أنه يفهم بسرعـة. . وكانت قـدرته على الفهم لا تدانيها سوى قدرته على التنفيذ. .

تمّ ما أراده فرعون تماماً. .

اختفى الكهنة ذات مساء، وأعلن في الصباح أنهم ذهبوا لتلبية أمـر عـاجـل في السـماء. . وصعـد خـدم الكهنـة إلى مكـان سـادتهم القدامى، وصار ولاؤهم لفرعون كاملاً. .

وأعلن وسط المصريين أن حركة تنقلات قد جرت بـين الآلهة، ولكل إنسان حرية عبادة الإله الذي يختاره، على أن يكون معلومـاً أن هذه الآلهة تخضع في النهاية لفرعون.

إنها تتجسد فيه، وتخضع له، وتنفذ أوامره. .

باختصار. . أصبح فرعون هو الرمز الذي يغني عنها جميعاً. .

واستقر الأمر لفرعون تماماً. . وزايلتـه أوجاع بـطنه، واكتشف أن متـاعبـه في الهضم كـانت بسبب الكهنـة، فلما تـلاشـوا تـــلاشت متاعبه. .

وتساءل المصريون أين ذهب الكهنة. .

واختلفت الآراء.. فمن قائل أنهم ذهبوا إلى السماء، ومن قائل أنهم نزلوا إلى الأرض.. ومن قائل أنه شاهدهم وهم يركبون سحابة فضية، ومن قائل أنهم قتلوا ودفنوا بغير تحنيط.. ومن معارض يقول: بل دفنوا بعد تحنيطهم بسرعة..

ويبدأ الاشتباك حول موضوع التحنيط، ويغرق الموضوع الأصلي في الظلام.. دائماً دائماً كان الموضوع الأصلي يغرق في الظلام، ويجلس الشعب المغلوب على أمره ليناقش مسألة هامشية..

أما فرعون فقد بدأ يمارس سيادته كملك وإلّه معاً.. وانتقلت إليه نتيجة لهذه الممارسة كل أملاك الكهنة وأرضهم وذهبهم، وأضيف هذا إلى قوة عمل بني إسرائيل التي كانت تخدمه، فأصبحت ثروته هي أعلى ثروة في مصر بعد ثروة قارون.. إذا لم نحسب الأرض الزراعية في مصر، فإذا حسبناها، باعتبارها ملكاً لفرعون.. كان معنى هذا أن ثروة فرعون كانت تزيد على ثروة قارون..

هدأ فرعون بعد هذه الخطوة وبدأ يمارس حياته العادية.. كان يرى هامان في الصباح عادة.. حيث يستمع منه لآخر الأخبار ويزوده بأهم توجيهاته وأوامره..

وفي هذا الصباح البعيد فوجىء فرعون بهامان يقول له وسط الأخبار نبأ وصول موسى إلى مصر..

سأل فرعون: موسى.. من يكون موسى؟

فرعون في القرآن [٧]

قال هامان: هل نسيت موسى يا مولاي.. موسى الذي عثرنا عليه في صندوق ملقى في النيل، وتولت زوجتكم - رفيعة القدر والمقام - تربيته بحنانها العظيم..

سأل فرعون: آه.. موسى.. تذكرته الآن.. ألم يقتل مصرياً قبل فراره من مصر..

قال هامان: نعم

قال فرعون: لماذا لم تقبضوا عليه؟

قال هامان: لقد خرج موسى من مصر منذ عشر سنوات يا مولاي، وبهذه السنوات سقطت العقوبة بمضي المدة..

قال فرعون: فهمت.. أي خبر تسوقه إلي عن موسى.. إن موسى ينتمي إلى بني إسرائيل.. وهؤلاء خدمنا، فهل هان وقت فرعون إلى الحد الذي تملؤه بأخبار الخدم.. هل جننت يا هامان.. أتظن أن لدي وقتاً لهذا الهراء..

قال هامان: مولاي.. أعرف أن الخبر لا يهم جلالتكم، ولكن زوجتكم - رفيعة القدر والمقام - بلغها أنه عاد، وقد طلبت رؤيته فذهب إليها..

انخفض صوت هامـان وهو يقـول: ولقد غلب جـلالة الملكـة انفعال البكاء حين شاهدت موسى. .

قال فرعون: يكشف الخبر عن أهمية لم تكن له منـذ لحظات. . مسكينة زوجتي. . إنها تعتبر موسى بمثابة ابن لها. . وهي لم تنجب. . وأنا لم أنجب، رغم كل جواري القصر. .

أليس محـزناً أن يكـون الملك الإله غـير قادر عـلى الإنجاب يـا هـامان. . أليست مـأسـاة أن يفشـل كـل الحمقى من أطبـاء مصر في علاج مسألة بهذه السهولة.

ماذا حدث بعد أن لقيت الملكة موسى؟

قال هامان: لقد تحدثا طويلاً يا مولاي. .

سأل فرعون: ماذا كان رد فعل الملكة على الحديث.

قال هامان: بعد انفعال البكاء الأول. . ابتسمت رفيعـة القدر والمقام مرتين أو ثلاث مرات. .

وبدا عليها الرضا لحديثه. .

قـال فرعـون حانقـاً: كانت تحلم بـأن يكون لهـا ولد. . كيف يكـون لي كل هـذا السلطان عـلى النـاس ولا يكـون لي سلطان عـلى نفسي. . كيف لا أدفـع عني ألم البـطن أو أجلب لنفسي القـدرة عـلى الإنجـاب. . هناك شيء خـطأ يا هـامان. . خـطأ في تـركيبـة الحيـاة ذاتها. .

ألا ترى ذلك. .

أرهف هـامان حـواسه بعـد السؤال الأخـير. . لم يعـرف مـاذا

يقـول. خشي أن يعتبره فـرعون ـ بـوصفه وزيـراً ـ مسؤولاً عن هـذا الخطأ في تركيبـة الحياة. . ومن ثم فقـد آثـر الصمت. . ورسم عـلى وجهه ابتسامة مذنبة حائرة لا تعرف كيف تداري جهلها بهـذا السؤال الصعب.

فرعون في القرآن [٨]

سأل فرعون زوجته وهما يجلسان إلى مائدة العشاء:

- بلغني أنك قابلت موسى . .

قالت الملكة: لشد ما تغير موسى . . لم يعد هو الطفل الذي ربيته . . صار شيخاً جليلاً . .

قال فرعون: لا تنسي أنه قاتل . .

قالت الملكة: لا تقل أنه قاتل . . ليس قاتلاً . . لقد ربيته وأعرف حقيقته . . لقد وكزه موسى . . دفعه بيده ليبعده عن خصمه . . لم يكن يقصد قتله ولا كان يقصد الشر أصلاً . .

كان يمنع رجلاً من قتل رجل آخر . . كان قصده الخير . .

قال فرعون: لن أناقشك فيما تقولينه . . لكنني أحب أن ألفت انتباهك إلى أمر تهدرينه تماماً . .

إن الرجل الذي دفعه موسى كان مصرياً، والرجل الذي دافع عنه كان من بني إسرائيل . . كان المصري سيداً وكان الآخر خادماً، ومن حق السيد أن يؤدب خادمه . .

سكتت زوجة فرعون وتشاغلت بتقليب الفاكهة أمامها . .

وعاد هو يقول:

ـ بوصفي أباً حنوناً لجميع المصريين، وبوصفي إلهاً لهم، يجب أن أعطي السادة حق تأديب الخدم. . وما فعله موسى كان ينطوي على إحراج لقصر الفرعون وسلطانه. . فهل تحبين إحراج الفرعون؟

هزت الملكة رأسها بالنفي، ثم غلبها الانفعال فبكت. . وأحس فرعون بالحيرة والارتباك أمام دموع الملكة. .

سألها حانقاً: لماذا تبكين الآن؟

قالت الملكة: إنه ابني. . أو هو بمثابة الابن لي. .

قال فرعون: لقد نسيت الملكة خلال دفاعها الحار عن موسى موضوع النبوءة تماماً. . النبوءة التي تقول إن واحداً من بني إسرائيل سينقذهم من يد الفرعون ويكون على يديه هلاك الفرعون. . هل نسيت الملكة ذلك؟

قالت الملكة وقد تقلص دمعها فجأة: أتراك تصدق هذه النبوءة يا فرعون؟

قال فرعون ضاحكاً: لست أصدق شيئاً. . ولكنني أتحرك طبقاً لأسوأ الظروف والاحتمالات. . وهذا من الحكمة. . ماذا يريد موسى؟. . وفيم تحدثتما. .

قالت الملكة: لم يقل لي ماذا يريد. . كل ما حدثني به أنه يريد أن يراك وأنه يحمل لك رسالة هامة. .

قال فرعون: هل جنت الملكة. . أنا. . فرعون. . أرى موسى. . لماذا. . منذ متى والملك الإله يسمح لواحد من خدمه أن يحدثه أو يراه. . ثم ما هي خرافة الرسالة التي يحملها إلي. . من

الذي كلفه بحملها إلي. . الطلب مرفوض. . لن أرى موسى. . إن
وقتي لا يسمح بهذا الهراء. .

فرعون في القرآن [٩]

تجدد طلب موسى بشأن لقاء فرعون مرة ثانية . .

هذه المرة كان الطلب وارداً في حـديث هامـان . . وقد جـاء في سياق الحديث ذات صباح . .

قـال هامـان : مولاي الفـرعـون . . إن مـوسى يـطلب رسميـاً لقاءك . .

نهض فرعون مغضباً وهو يصرخ :

ـ كيف يجرؤ . . كيف؟

قال هامان هادئاً : لقد أحدث وجود فرعون وسط بني إسرائيل إحساساً جديداً يا مولاي . . وهو إحساس يقلقني . . أقصد من ناحية الأمن . .

هدأ فرعون تماماً حين وردت سيرة الأمن ، سأل وزيره :

ـ ماذا تعني . . ماذا حدث؟

قال هامان : لقد حدثت عدة أمور تشبه لو تأملناها وربطنا بـين خيـوطهـا تمـرداً في بـدايتـه ، إن بني إسرائيـل بعـد قـدوم مـوسى قـد تغـيروا . . لقد رفض ثـلاثة منهم العمـل بالأمس وتحـدوا سادتهم . . وصحيح أن التمرد أخمد على الفور ، ولكنني أحس بالقلق . . إن هناك

جـواً عامـاً من الثقة يشيـع الآن في بني إسرائيل، هـل تذكـر نبوءتهم القـديمة بقـدوم من يخلص شعبهم من بؤسـه ويـطلق سراحـه، هـذه النبوءة تعود بوجهها الكالح وهي تطل هذه الأيام . . ولست مطمئناً يا مولاي لما يجري . . ولا أحد يعرف ما الذي يدور في نفس موسى، ولا أحد يعرف علاقته بهذا المخلص الذي سينقذ شعبهم . .

من هنا فإن طلب موسى رؤيتك فرصة ذهبية نعرف من خـلالها حقيقة نواياه . .

فكر فرعون قليلاً ثم قال:

- أنت تنصحني أن أرى موسى إذن؟

قال هامان: نعم . . لإجراءات أمنية . .

قـال فـرعـون: إن مجـرد قبـولي رؤيتـه يعني أنني تنـازلت وتواضعت . .

قال هامان: لا تنس يا مـولاي أن موسى تـربى في هذا القصر، وكان لك بمثابة الابن، وقد أحبته جلالة الملكة، رفيعة القدر والمقام، واعتبرته بمثابة الابن . .

سنقول إن الفرعون الأعظم قد نزل على رغبة زوجته الملكة . .

فكر فرعون قليلاً وقال:

- لا بأس . . حدد لموسى موعداً يراني فيـه . . أريد اللقـاء هنا في قاعة العـرش . . وأريد أن يـرتدي الـوزراء والأمراء وقـادة الجيش ملابسهم الذهبية . .

أريد مظاهـرة عسكريـة تخلع قلب موسى من صـدره . . وأريد

أبهة لم تحدث من قبل إلاّ في حفلات التتويج . .

إنني أعــرف بني إسرائيــل . . إن ضعـفهـم للذهـب قــديم ومشهور . . وأنا أريد أن أبهر موسى . .

قــال هامـان: أمر فـرعون . . ثم انحنى طـويلاً وحـين اعتـدل استأذن أن ينصرف . .

فرعون في القرآن [١٠]

أشرف هامان بنفسه على تنظيم أول لقاء تمّ بين موسى وفرعون، كان مسرح اللقاء هو قصر فرعون. . وأصدر هامان أمره بمضاعفة الحرس الملكي هذه الليلة . .

أمر الجميع بارتداء الثياب الذهبية وكانت دروع هذه الثياب تصنع من الذهب، أيضاً أمر هامان بمضاعفة الشموع حتى ينعكس وهجها على الذهب فيزيد من تألقه . . كتبت الدعوة على ورق البردى الفاخر بماء الذهب ووجهت إلى وزراء فرعون. . وأمراء القصر الملكي . . ورجال الجيش. . والكهنة الجدد. وكل الشخصيات البارزة في مصر . .

كانت قاعة العرش فسيحة. . ومهيبة . . إن كرسي فرعون كان مصنوعاً من الذهب والعاج . . وكان تألق الذهب وشحوب العاج يصنعان معاً تأثيراً مدهشاً يوحي بالمهابة والجمال معاً. . ولم يكن في القاعة كلها غير كرسي الفرعون.

هو وحده الذي يجلس. . أما بقية الحاشية فكانوا يقفون جميعاً في حضرته . .

واقترب يوم اللقاء ونشطت عيون هامان وسط بني إسرائيل

لمعرفة نوايا موسى ولكنهم عادوا يحكون قصصاً مختلفة لا تصلح معاً للفهم. . تحدث بعض جواسيس هامان عن نار مقدسة رآها موسى، وهو عائد من مدين إلى مصر. . وتحدث بعض جواسيسه أنه نودي في واد من أودية سيناء أن يذهب إلى فرعون. .

لم يفهم هامان شيئاً من هذه القصص العجيبة. . أي نار مقدسة ومن الذي نادى موسى. . ؟ وما هي الرسالة التي كلف بحملها لفرعون.

أيكون في الأمر مؤامرة ما؟ . .

غزو خارجي مثلاً لمصر. . ؟ غزو يأخذ شكل إرسال رسول برسالة غامضة. .

دار ذهن هامان حول عشرات الاحتمالات والمخاوف. . كان يحس بالحيرة الداخلية. . وشيء من الكآبة المشوبة بالخوف. .

كان المفروض أن ينقل لفرعون شرحه للأحداث وتحليله لها، ولم يكن قادراً على ذلك لأنه هو نفسه لم يكن يفهم شيئاً. . وفي المرة الوحيدة التي سأله فرعون في ذلك. . قال هامان:

ـ أعترف لمولاي الفرعون أنني حائر فيما سمعته. إن بني إسرائيل يتحدثون عن نار رآها موسى وهو في سيناء، ثم يتحدثون عن نداء وجه إلى موسى، ورسالة كلف بحملها إلى الفرعون. . ما هو فحوى الرسالة. . ؟ هذا ما فشلت في معرفته، ويبدو لي الأمر كله كهذيان ثقيل. . ولقد هداني تفكيري إلى أن موسى يريد مقابلة جلالتكم ليطلب مساعدة مادية أو شيئاً من هذا القبيل.

هذا هو التفسير الوحيد المعقول حتى الآن للأحداث. .

فرعون في القرآن [١١]

وجاء يوم اللقاء . .

وصل آل فرعون قبل وصول فرعون وطافت عليهم جواري القصر بالفاكهة والشراب . . وعزفت المنشدات. وأريق العطر في المكان ثم دخل هامان القاعة . . وأعلن عن وصول فرعون قائلاً : إن رئيس وزراء مصر وعبد الفرعون يشرفه أن يعلن عن وصول ملك الوجهين، وسيد البحرين وسليل الأمجاد والبهاء، وشقيق حوريس الصقر إلّه السماء، والإبن الشرعي لإلّه الشمس رع . . مولاي الملك الإلّه فرعون . . قال هامان كلماته وركع . .

ركع كل من في القاعة بعده وساد صمت ثقيل . .

سار فرعون حتى وصل إلى كرسيه فجلس . . ثم خبط بعصاً من الذهب على يد الكرسي إشارة إلى الناس فنهضوا من ركوعهم .

سأل فرعون هامان :

- من الذي يرغب في رؤيتنا اليوم يا هامان؟

قال هامان :

- رجل خيرك أغرقه يا مولاي . . وإنسان تربى في هذا القصر

كابن لجلالتكم. . وصحيح أنه ينتمي إلى طائفة تعتبر في حكم العبيد. . إلاّ أنه قد طمع في عطف مولاي، ورغب في التعرض لكرم جلالتكم. . هذا هو موسى يا مولاي. . ومعه أخاه هارون، ومعهما ثلاثة من وجوه بني إسرائيل. .

هل آذن لهم بالدخول يا مولاي؟

قال فرعون وهو يتلفت حوله:

من كمال الإله أن يسمح لعبيده بسؤاله ولو على فترات متباعدة. . ماذا نفعل. . ؟ هذه متاعب الملك والألوهية. .

ضحك فرعون بعد جملته... فضحك هامان بعده وضحك كل من في القاعة بعد إشارة هامان.

حين سكت الضحك رفع فرعون يده وقال:

- أدخلوا موسى. .

فتح الحرس الملكي باب غرفة انتظار تفتح على قاعة العرش ودخل موسى وهارون وثلاثة من وجوه بني إسرائيل. . كان موسى يرتدي ثوباً من الصوف الخشن الأبيض، وكانت لحيته المهيبة تنسدل على صدره. . وكان يمسك في يده عصاً غليظة كانت في الأصل فرعاً في شجرة من أشجار الفاكهة. . لم يكد فرعون يشاهد عصا موسى حتى أحس بالغضب والانقباض. . كيف يدخل على فرعون أحد وهو يمسك في يده عصا؟. . فرعون وحده هو الذي يمسك عصا الملك. . أما من عداه من الضيوف والخدم فلا ينبغي لهم أن يحملوا في أيديهم شيئاً. .

فرعون في القرآن [١٢]

لم يكن فرعون هـو وحده الـذي لاحظ الخطأ الـذي حدث . .
لاحظه هامـان في التو واللحـظة وتساءل هـامان كيف سمحـوا لموسى باصطحاب عصاه وهو يدخل على الملك . . كيف وقع هذا؟

إن ضـابط الحراسـة في غرفـة الضيوف هـو المسؤول عن هذا، ولسوف يعاقبه هامان عقاباً مهولاً . .

نظر فرعون إلى هامان . . وفهم هامان على الفور رسالة فرعون الصامتة، كـان المفروض أن يـترك موسى عصـاه في غرفـة الضيوف، حتى إذا انتهى لقاؤه بفرعون أخذ عصاه وهو خارج . .

أراد هـامان أن يتصرف . . تقـدم من موسى وأراد أن يقـول له لقد اخطأت باصطحاب عصاك . . لا يقابل فرعون أحـد وهو يحمـل في يده سوى خضوعه لفرعون . . أراد هامان أن يفعـل هذا أو يقـوله وتحـرك فعلاً صـوب موسى، ولكن نـظرة من عين فـرعون أوقفتـه في مكانه . .

كان فرعون يقول بنظرته : ليس الآن أيهـا الأحمق . . لقد فـات أوان إصلاح الخطأ الذي وقع . .

سار موسى حتى وصل أمام فرعون. . كان موسى يفكر ماذا يقول لفرعون. . ؟

لقد صدر إليه الأمر الإلهي أن يذهب إلى فرعون. . كما صدر له الأمر مع هارون أن يقولا لفرعون قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى. . كان موسى يدير في ذهنه عبارات لينة ليقولها لفرعون. . وكان يحس أن عليه أن يبذل جهداً مضاعفاً لعلاج خشونة القول الذي يعتمل في صدره ويتردد مشفقاً على لسانه. .

وقف موسى ووقف صحابته. . ولم يركعوا لفرعون. . وأحس هامان مرة ثانية أن ضابط القصر هو المسؤول عن عدم تفهيم موسى وجوب ركوعه لفرعون. .

سيدفع الضابط ثمن هذا الخطأ. وسيكون الثمن فادحاً. .

زاد ضيق فرعون وزاد إحساسه بالغضب. . نظر إلى عصا موسى نظرة شذراء. . ووسط الغضب الذي يعتمل في صدره وُلِدَ شبح مجهول وغامض للخوف. خوف لا يعرف فرعون مصدره. . ولا يدري من أين يجيء. . خوف يذكر فرعون بخوفه وهو طفل من الظلام. . خوف غامض. . ثقيل موحش. . وحاول فرعون أن يدفع هذا الخوف عن نفسه. . أدار بصره حوله يستلهم الطمأنينة من سيوف قادته وضباطه. . فلم تبعث السيوف في نفسه الثقة واكتسحته موجة الخوف. .

وقف موسى ورفع يده بالتحية وقال:

- السلام على من اتبع الهدى. .

كانت التحية غريبة. . أحس فرعون بغرابتها على الفور. . لماذا لا يقول السلام على فرعون؟

فرعون في القرآن [١٣]

عبر فرعون على ما في تحية موسى من غرابـة، وأومأ بـرأسه يـرد التحية بكبرياء حانق، ثم انتبه على كلام غريب بدأ موسى يقوله . .

كان موسى يقول: الحمد لله رب العالمين. . والسـلام على من اتبع الهدى من عباده المؤمنين، وبعد. . أيها الفرعون الكبـير، إن الله رب العالمين قد اختصك بـالسيادة والعـظمة، وآتـاك الملك والحكم، تفضلاً منه وكرماً، وابتلاء وحكمة وليس هناك أرحم بالعبـاد من رب العـالمين. وأنت تملك مصر في الحيـاة الدنيـا، تستطيـع لـو أردت أن تملك الجنة في الحياة الآخرة، وما عليك إلاّ التقوى. . وهذا هو طريق الجنة.

رفع فرعون يده يسكت موسى . .

سكت موسى محرجاً. . وأنشأ فرعون يسأل:

ـ ألست أنت موسى الذي التقطناه من النيـل طفلاً مجهـولاً لا حول له ولا قوة. . ؟ أجب عن سؤالي يا موسى . .

قـال موسى: نعم أنـا ذلك الـطفل الـذي التقطه فـرعـون من النيل . .

قال فرعون: ألست أنت الطفل الذي تربى في هذا القصر وأكل من خبزه وخيراته؟..

قال موسى: نعم.

عاد فرعون يسأله: لقد رعيناك في هذا القصر كابن لنا، وملأ حبك قلب زوجتنا ـ رفيعة القدر والمقام.. ثم كبرت وصرت رجلاً، ماذا فعلت بعد ذلك.. هل نسيت؟..

لقد قتلت رجلاً.. **﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾**.

قال موسى: **﴿فعلتها إذن وأنا من الضالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾**.

كان فرعون قد نجح في حواره أن يضع موسى في موقف الدفاع عن النفس:

وكان هذا أسلوب فرعون في الحوار عادة. كان يشغل من أمامه بالدفاع عن نفسه، ريثما يكيل هو الاتهامات إليه ويجهز عليه. ولقد وقف موسى موقف الدفاع وقال أنه قتل بغير عمد، كان لا يقصد القتل ولم تتجه نيته إليه.. لقد وكزه فحسب فقضى عليه.. أيضاً اضطر فرعون موسى إلى أن يعترف أنه فر من مصر خوفاً من العقاب، الشيء الذي لم يفهمه فرعون هو العبارات الأخيرة الغامضة التي وردت في حديث موسى **﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾**.

من يكون ربه..؟ وكيف جعله من المرسلين؟، ولمن أرسله؟، وما هو الهدف من إرساله؟

قال فرعون: يا موسى.. أنت تتحدث عن رب وهب لك حكماً وجعلك من المرسلين.. أي رب هذا؟

قال موسى: رب العالمين سبحانه.

قال فرعون: ﴿وما رب العالمين؟﴾

لم يقل ومن رب العالمين بل قال وما رب العالمين استكباراً واستهزاء..

فرعون في القرآن [١٤]

لم يكد فرعون يسأل:

ـ وما رب العالمين..؟ حتى ردّ موسى بصوت قوي واثق

ـ ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين..﴾

التفت فرعون لمن حوله وقال هازئاً؛

ـ ألا تسمعون؟

ضحك فرعون وضحك هامان وضحك كل المصريين هازئين. ارتفع صوت موسى وسط هذه الضحكات، متجاوزاً سخرية الفرعون.. وهو يقول:

ـ ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين..﴾

صمتت الضحكات وساد سكون ثقيل.. ورأى فرعون أن الموقف يوشك أن يفلت من يده فوقف فجأة واتجه نحو من جاءوا مع موسى وخاطبهم قائلاً:

ـ ﴿إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون..﴾

قالها فرعون واستدار يواجه موسى ويشير إليه.. تجاوز موسى

اتهام الفرعون له بالجنون وعـاد يستكمل حـديثه عن رب العـالمين. . وقال:

ـ ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾.

كانت العبارة الأخيرة تنطوي على اتهام بأنهم لا يعقلون. .

وقد أدرك فرعون معنى العبارة وصعد الدم إلى رأسه وأحس أنه يختنق بغضب هائل. .

غضب يمنعه من الكلام. .

أشار فرعون إلى هامـان وقال: هـامان. . تقـدم وقل لمـوسى رأينا فيما يجري. .

أدرك هامان أن الفرعون يستنجد به فـاستل سيفـه وتقدم نحـو موسى وهو يقول:

ـ يـا موسى. . إنـك تقول كـلاماً هـو الجنـون بعينـه. . ولقـد تجاوزت بكلامك كل الحدود والسدود. . لقد فهمت من الخلط الذي تقـوله أن هنـاك إلهاً غـير الفرعـون. . ألا تعلم أن لهذه المملكـة إلهـاً واحداً هو الملك فرعون. . إن أقوالك توقعك تحت طائلة القانـون. . لن أقول أننا سنقتلك. . فالقانون المصري لا يقتل المجـانين. . لأنهم ليسوا مسؤولين عن أقوالهم وأفعالهم. .

تقدم الحرس جميعـاً واستلوا سيوفهم وأحـاطوا بمـوسى وهارون ومن معه. .

وانتظر الجميع إشارة من فرعـون ليقضوا عـلى موسى. . وعـاد فرعون إلى عرشه وجلس وهو يقول لموسى:

ـ ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . . ﴾

قال موسى : ﴿أو لو جئتك بشيء مبين . . ﴾

قال فرعون : ﴿فَأْتِ به إن كنت من الصادقين﴾ .

فرعون في القرآن [١٥]

قال تعالى ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين.. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾..

....

بعد أن تحدى الفرعون موسى.. وقف موسى يستلهم قلبه الخطوة التالية وأوحى الله تعالى إليه أن يلقي عصاه من يده، رفع موسى يده وترك العصا تسقط فوق أرض القاعة التي صنعت من الجرانيت المصقول، ارتطمت العصا بأرض القاعة محدثة صوتاً لفت إليه كل أنظار الحاضرين.. وهكذا وسط صمت القاعة اتجهت كل الأنظار إلى العصا التي سقطت.. لم تكد العصا تمس أرض القاعة حتى ذاب صوتها.. وتحولت من عصا إلى ثعبان مبين.

كان الثعبان غريباً وضخماً لم ير مثيله من قبل أحد. وحبس المصريون أنفاسهم والثعبان يزحف في الدائرة التي صنعها الحرس، ومع حركة الثعبان بدأت الدائرة تتسع.. وتتسع.. حتى وجد حرس الفرعون نفسه يتراجع في النهاية حتى يلتصق بجدران قاعة العرش البعيدة..

أما الفرعون، فلم يكن بينه وبين الثعبان أحد يمنعه منه..

تشبث فرعون بكرسيه ودهمه خوف مروع . . حبس أنفاسه حتى لا يلتفت إليه الثعبان . . وكان الثعبان يتحرك في كل اتجاه وهو يحدج فرعون بعينين لا تطرفان . . وسقط قلب فرعون في ركبتيه . .

أما هامان فكان سيفه في يده، وكان الثعبان أمامه، ولكن خوفاً غريباً كان يمسك يده التي تمسك بالسيف. وفي إحدى حركات الثعبان واجه هامان . . ولم يعرف هامان ماذا يفعل من فرط رعبه. إن ارتعاشة باردة تشق ظهره كله ويده تفتح رغم أنفه فيسقط منها السيف.

أحدث السيف صوتاً مزعجاً وهو يسقط على الأرض . . ولكن فحيح الثعبان وصوته كانا أشد من أي إزعاج لأي صوت آخر . .

ظلت أنظار الجميع مركزة على الثعبان، وشل الجميع في أماكنهم خوف هائل.

وأدرك موسى أن الرعب يكاد يقتل الجميع فتقدم من الثعبان وسط دهشة فرعون وأمسكه . .

لم يكد موسى يلمس الثعبان حتى تحول في يده إلى عصا . . نفس العصا التي دخل بها القاعة . .

سادت همهمة بعد أن زال عن الناس روع ما حدث . . وتحرك فرعون قلقاً في كرسيه . . وتصبب على وجهه عرق غزير، رغم برودة الجو . . ورفع موسى صوته فأنصت له الجميع . .

قال موسى: هذه هي الآية الأولى التي أرسلني بها الله رب العالمين . . وهناك آية أخرى . .

فرعون في القرآن [١٦]

سأل موسى فرعون وآل فرعون:

ـ هل أريكم الآية الأخرى التي بعثني الله بها تصديقاً وتأييداً لي؟

لم يرد عليه أحد.. لا الفرعون ولا هامان ولا أي مصري آخر. كان الصمت يعقل الألسنة..

إن أثر الآية الأولى لم يزل يخيم بثقله على المكان، ومن ثم فإن أحداً لم يتكلم،.. قال موسى وهو يدخل يده تحت عباءته الصوفية الخشنة:

ـ هذه هي الآية الثانية..

تركزت أنظار آل فرعون وفرعون على يد موسى التي اختفت تحت عباءته، ثم تركزت عليها وهي تخرج من عباءته..

لم يكد موسى يخرج يده حتى خرجت بيضاء وتضيء كالقمر..

شحبت كل شموع القصر وأضواؤه أمام هذا النور الجديد.. وانعكس النور على وجوه الحاضرين جميعاً..

كان النور قوياً إلى الحد الذي ارتفعت فيه أيد كثيرة تحجب عن

عيونها الوهج . . أغمض فرعون عينيه ورفع يديه يغطيهما وحاول من خلال أصابعه أن يحدق في هذا النور فلم يستطع .

وبقدر ما كانت الآية الأولى من آيات القهر، كانت الآية الثانية من آيات اللطف، وعلى حين تركت الآية الأولى تأثيرها من الجلال تركت الآية الثانية تأثيرها من الجمال . .

أعاد موسى يده بعد قليل إلى جناحه . . واختفى النور المثير الذي أضاء القاعة . .

لم يكن النور يشبه نور القمر تماماً، ولا كان يشبه ضياء الشمس أيضاً، ولا كان يشبه التماع البرق . . كان النور من طبيعة أخرى ومادة أخرى . . مادة مجهولة تماماً . .

وكان جميلاً . . فلما فاض على الحاضرين ملأهم إحساس بالجمال والأنس والانسجام والثقة، فلما أعاد موسى يده إلى عباءته واختفى النور، وقع آل فرعون كما وقع فرعون في ظلام أضواء الشموع مرة أخرى . .

وكان ضوء الشموع يشبه الظلام تماماً جوار هذا النور الذي ظهر، واختفى منذ لحظات . صمت موسى برهة حتى تمالك الناس نفوسهم وأنشأ يقول :

- إن رب العالمين قد زودني وأخي هارون بهاتين الآيتين، وقد أرسلنا إليك يا فرعون برسالتين : رسالة عامة ورسالة خاصة، أما الأولى فلا تزيد عن قولي لك ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾ . . أفلا تتقون . .

هذه هي الرسالة الأولى . . أما الرسالة الثانية الخاصة فهي

قـولي لـك: ﴿إنّـا رسـولا ربـك فـأرسـل معنـا بني إسرائيـل ولا تعذبهم﴾..

أنصت فرعون جيداً لما قيـل ثم نهض واقفاً وقـال: انصرف يا مـوسى الآن، وسنستدعيـك فيـما بعـد.. لينصرف الجميـع.. وليبق هامان ومجلس الأمراء الأعلى.. لقد انتهى الاجتماع أيها السادة.

فرعون في القرآن [١٧]

انصرف الجميع. .

خرج موسى مع قومه أول واحد. . ومن بعده تسلل كل كبار رجال مصر ونسائها ولم يبق سوى مجلس الأمراء الأعلى وفرعون. .

سأل فرعون: هامان. . هل تستطيع أن تحدثني عما جرى في هذه القاعة؟

قال هامان: نعم يا مولاي. . إن ما جرى كان عجباً. .

قال فرعون حانقاً: أنا لا أطلب منك وصف ما جرى. . لأنني رأيته مثلك. . إنما أطلب تحليل أسبابه. . كيف جرى ما جرى؟. . كيف سمح لموسى أن يقابلني وهو يحمل عصاه؟

قال هامان: نعم أيها الملك الإله. . لقد كان هذا خطأ ترتبت عليه كل الأخطاء التالية. . سيدفع ضابط الحرس المنوط به هذا الأمر ثمن تهاونه. .

عاد فرعون يسأل:

ـ ما الذي حدث. . أريد تحليلاً لما حدث. .

كان الخطاب موجهاً للجميع، ولم يجد هامان داخل نفسه شيئاً يقوله، أيضاً لم يجد الأمراء ما يقولونه باستثناء شيخ مهيب، كان من آل فرعون، وكان لفرعون بمثابة العم . . وكان مؤمناً يكتم إيمانه .

رفع هذا الأمير يده فأشار له فرعون أن يتكلم . .

قال الأمير: أيها الفرعون الحكيم . . إن موسى جاء بآيتين واضحتين . . إن العصا تحولت إلى ثعبان هائل أفزعنا جميعاً، ولقد كان الثعبان غريباً، فلم ير أحدنا شيئاً في مثل ضخامته ولا نوعه .

أما الآية الثانية فكانت أعجب من الأولى . . إن النور الذي خرج من يده حين ضمها لجناحه كان نوراً غير أرضي . . لم يكن يشوبه ما يشوب أنوار الأرض من عكارة . .

ماذا لو كان موسى مرسلاً حقاً من الله . . إنني أوشك أن أقتنع بصدقه . .

اعترض هامان قائلاً: بل هو كاذب . . ومعذرة يا سيدي الأمير . . إن موسى كاذب بغير شك . . إن قصة النار التي رآها والرسالة التي أوحيت إليه من قصص الهذيان والجنون . . إنه يكذب . . إنه ساحر . . مجرد ساحر عليم . .

إن الحيلة التي استولى بها علينا حيلة بسيطة من حيل السحرة المشهورين في مصر . .

استمع فرعون لما قاله الأمير الشيخ واستمع لما قاله هامان ووجد فرعون نفسه يقول:

ـ صدقت يا هامان . . صدقت . . إن موسى ساحر . . لقد قلت ما أريد أن أقوله بغير زيادة ولا نقص .

أيها السادة: نحن أمام قضية رجل جاء يهدم نظام الملك الإله، وهو نظام يعتبر المساس به خيانة عظمى..

قال هامان: نعم.. نحن أمام قضية خيانة عظمى.

فرعون في القرآن [١٨]

انفض الاجتماع الفرعوني المخصص للأمراء، وآوى فرعون إلى فراشه.. كان يحس أنه محموم، كان يرتعش بغضب غير عادي رغم أنه يتفصد عرقاً، إن كل ما بناه تاريخ النظام الفرعوني يوشك الآن أن ينهار على رأسه.. عظمة فرعون ونظام الملك الإلّه وملك مصر.

يوشك هذا كله أن يخرج من يد فرعون إلى الأبد..

والسبب هذه القصة الخرافية التي جاء بها موسى عن رب العالمين الذي أرسله.. يجب هزيمة موسى.. ليس هناك بديل لهذا.. يجب أن يختفي موسى من المسرح.. لماذا لم يصدر فرعون أمره بقتله وتركه يغادر القصر سليماً، تردد السؤال داخل عقل فرعون فلم يكن له غير جواب واحد..

لقد كان فرعون خائفاً..

من أي شيء.. لا يعرف.. ما هو مصدر خوفه؟ لا يدري..! كل ما يعرفه أنه تجمد في مكانه وأصدر أمره.. لقد سحره موسى، ليس هناك تفسير للضعف المفاجيء الذي أصاب فرعون والخوف غير المفهوم الذي داهمه سوى تفسير واحد..

لقد سحره موسى . .

أيقن فـرعون أن مـوسى ساحـر، لقد اكتشف هـامـان حقيقـة موسى على الفور، غداً يصدر أمره بقتل موسى . . يجب أن يتذكر هذا جيداً حين ينهض من فراشه في الصباح .

حاول فرعون أن ينام . . ولكنه كان نـوماً قلقـاً يمتلىء بـالأخيلة والكوابيس والأحلام المخيفة .

شاهد فرعون حلماً رأى فيه نفسه في مـركبته الحـربية، وكـانت مركبته تجـري على المـاء، ولم يعرف فـرعون كيف تجـري المركبـة على المياه، كان الأمـر حلماً غريبـاً فلم يتساءل عقله، وفجـأة انشقت المياه عن عصـا تطفـو على السـطح، ثم تحـولت العصـا إلى ثعبـان مبـين، انكمش فرعون في مركبته الحربية خائفاً، ولكن الثعبـان غرس أنيـابه في خشب المـركبة فحـطمهـا . . وهـوت المـركبـة وهي تغـرق ومعهـا فـرعون . . وصرخ فـرعون صرخـة هائلة أيقـظته من نـومه وأيقـظت زوجته . . استدعت رفيعة القدر والمقام طبيب القصر الذي هرول إلى فرعون، كان فرعون زائغ العينين يرتعش وجسده كله مبلل بالماء . .

سأله الطبيب: ماذا وقع أيها الملك الإله . . بماذا تحس؟

قـال فرعـون: شاهـدت حلماً رأيت نفسي أغـرق فيـه . . كـل أحـلامي هـذه الليلة تنتهي بـالغـرق . . أيهـا الـطبيب . . أريـد دواء ينقذني من الغرق في أمواج النوم التي تشبه الجبال . .

أعـطاه الطبيب شراباً مهدئاً لم يلبث بعده فـرعون أن راح في سبـات عميق . . استيقظ فرعـون في الصباح هـادئاً حـاسماً وكـأن مـا

حدث ليلة الأمس كان حلماً بعيداً وقع لإنسان آخر، وحكـاه له هـذا الإنسان الآخر بشكل مشوش. .

كان ذهن فرعون صافياً تماماً وهو يدخل قاعة العرش الصغرى للقاء هامان.

فرعون في القرآن [١٩]

قال هامان لفرعون في اجتماع الصباح الذي أعقب الحدث. .

ـ مولاي. . إن مصر كلها تغلي هذا الصباح بأنباء ما حدث ليلة الأمس. . كأن الطيور حملت الخبر من أقصى مصر إلى أدناها. .

كل إنسان في مصر يتحدث عما جرى في قاعة العرش أمس. . كل الناس يتحدثون، ولقد تضخمت أسطورة موسى وكبر في عيون بني إسرائيل، وهم يتهيأون الآن للرحيل عن مصر. . طبقاً لوعد موسى لهم بالخروج. .

قال فرعون: خروج من؟

قال هامان: خروج بني إسرائيل. . ألم يقل موسى بالأمس في ختام حديثه إن الله قد بعثه برسالتين: رسالة إليك لتؤمن بإلهه، ورسالة أخرى بأن تترك بني إسرائيل ولا تعذبهم.

قال فرعون: نعم نعم. . هذا ما قاله موسى. . إنني مندهش جداً يا هامان. .

قال هامان: من أي شيء يا مولاي. .

قال فرعون: لقد أعطاني طبيب القصر بالأمس شراباً نمت

بعده نوماً عميقاً لم أحلم فيه حلماً واحداً. . هل تعرف أنني ما زلت نائماً يا هامان. .

سأل هامان: كيف يا مولاي؟

قال فرعون: إنني هادىء كأنني نائم. . اسمع يا هامان. . إن قصة موسى التي سمعناها بالأمس غير واضحة في عقلي. . ربما بسبب السحر الذي سحره موسى لنا. . وربما بسبب الشراب المنوم الذي أعطاه لي طبيب القصر، وعلى أي حال. . لقد وصلت إلى قرار.

سأل هامان: أي قرار يا مولاي؟

قال فرعون: استدع موسى ليراني وحده. . ليحضر أمامي بغير عصاه. . أريد أن أسأله وأفهم منه حقيقة إلهه. . وحقيقة قصته. . إن هناك أشياء كثيرة غامضة في روايته بالأمس.

قال هامان: ماذا نفعل في الألسنة التي لا تتوقف عن الحديث عما جرى. .

قال فرعون: دع الناس يتحدثون. . واضرب بني إسرائيل بقسوة. .

إنهم يقولون اليوم إن فرعون قد هزم. . دعهم يقولون. . لقد كسب موسى الجولة الأولى، لكن موسى سوف يختفي. . سوف يتلاشى تماماً من المسرح. . والآن. . عليك بإرهاب بني إسرائيل حتى يعرفوا أن وجود موسى لم يفدهم شيئاً. أما موسى نفسه فسوف يقتل، هذا هو القرار الذي اتخذته. . يجب قتل موسى.

قال هامان: دع لي تدبير هذا الأمر يا مولاي إذا كان تنفيذه يسرك! هل نقتله اليوم؟

قال فرعون فزعاً: لا لا . . ليس اليوم . . انتظر حتى أحدد لك يوم التنفيذ . . كل ما أريده الآن أن أفهم . .

يجب أن نبـدّد الغموض الـذي يحيط بقصة مـوسى عن رسالـة رب العـالمين . . اسمـع يا هـامـان . . إذا انتصف الليـل هـذه الليلة فـأحضر إليّ موسى وحـده . . بغير عصـاه . . أريـد أن أسـألـه بضعـة أسئلة .

فرعون في القرآن [٢٠]

من أوراق التحقيق مع الضابطين الفرعونيين اللذين سمحا لموسى بالدخول على فرعون بعصاه . .

. . . إنه في يوم . . . انتقلت أنا كبير المحققين إلى الديوان الفرعوني ووجهت إلى كا ـ نفر ـ بع الأسئلة التالية :

سين ـ هل أنت الضابط المنوط بغرفة الضيوف في القصر الفرعوني؟

جيم ـ نعم

سين ـ هل دخل موسى الغرفة ومعه عصاه؟

جيم ـ نعم

سين ـ كيف حدث أنك سمحت له بالمثول بين يدي فرعون وهو يحمل عصاه . . هل تقر تقاليد القصر الملكي هذا؟

جيم ـ لقد أخطأت . . ولكنني أقسم بعزة فرعون أنني لم ألاحظ العصا في يده .

سين ـ بماذا تسمّي الضابط الذي لا يلاحظ شيئاً هو من صميم واجبه .

جيم ـ ضابط مقصر

سين ـ إن التقصير ليس تهمتك الوحيدة. . إن هناك شكاً في تآمرك، لقد نما إلى علمنا أن لك خليلة مقربة من بني إسرائيل وأنك تقابلها كثيراً. . وقد قابلتها في الليلة التي سبقت خطيئتك الكبرى بترك موسى يدخل بعصاه على فرعون. . والآن. . ما هي العلاقة بين علاقتك بخليلتك وبين تقصيرك في أداء واجبك؟

جيم ـ ليست هناك أي علاقة. . أقسم على ذلك بعزة فرعون. .

سين ـ من يدرينا أنه ليست هناك علاقة؟

جيم ـ إخلاصي في خدمة فرعون.

سين ـ هل من إخلاصك لفرعون أن تدخل عليه ساحراً بعصاه؟

جيم ـ لا

سين ـ هل تعتقد أن فرعون يمكن أن يطمئن لك بعد الآن؟

جيم ـ لا

سين ـ اعترف المتهم وتحررت أقواله ووضع توقيعه على المحضر، وقد عزل من منصبه وجرد من رتبته العسكرية وأودع السجن حتى يرى فيه الفرعون رأيه. .

أما الضابط الثاني بي ـ عا ـ حور فقد كان التحقيق معه مختصراً. . لقد كان هو المسؤول الواقف عند باب القصر. . وقد أنكر هذا الضابط أن موسى دخل بعصاه أصلاً. . وقال أنه لم يرَ معه عصا. . وبالتالي فإن هذه العصا تسربت إلى قصر الفرعون قبل

وصول موسى. . وبالتالي فإنه ليس مسؤولاً عنها لأن مسؤوليته تنحصر في حراسته لباب القصر. . وهو لم يشاهد مع موسى عصا حين دخل القصر. . وقد تحررت أقواله ووضع توقيعه على المحضر، وقد عزل من منصبه وجرد من رتبته العسكرية وأودع السجن حتى يرى فيه الفرعون رأيه.

فرعون في القرآن [٢١]

أوجس موسى في نفسه خيفة حين قال له رسول فرعون:

ـ إن فرعون يريد أن يراك الليلة. .

سأل موسى وهو يخفي قلقه:

ـ متى أذهب؟

قال الرسول الفرعوني: بعد منتصف الليل. . وحدك. .

انصرف الرسول وراح موسى يقلب الأمر في عقله. . لماذا يريد فرعون أن يراه وحده؟

هل يفكر فرعون في قتله؟. . هل ينوي سجنه؟. . أي أمر يدبر له؟. . لم يخف موسى من فكرة القتل أو السجن. . لقد وعده الله تعالى بحفظه وحراسته. . وأنبأه أنه يسمع ويرى، ويهيمن على كل شيء، ويحفظ كل شيء. . لا خوف على موسى إذن. .

لكن موسى تربى في قصر فرعون، ويعرف أكثر من غيره كيف تجري الأمور في هذا القصر الملكي، ويعرف أن القرار النهائي الذي يحدد مصائر البشر هو دائماً في يد جبار واحد. . هو فرعون. .

كان موسى يدري من أسرار القصر الفرعوني ما يجعل مخاوف

قلبه أمراً طبيعياً للغاية . .

. . . .

نفس الوقت في قصر فرعون .

كان فرعون جالساً أمام هامان . . كانا معاً يضعان خطة نهائية لسحق موسى وهزيمته .

زالت عنهما الآن آثار المعجزتين . . وعاد عقلهما يعمل بطريقته الخاصة التي يعرفها المتآمرون الكبار .

قال فرعون لهامان : يجب أن ننكل بقوم موسى يا هامان . . يجب أن يعرفوا أن وجود موسى لم يحمل إليهم الأمن أو الحماية . . بل بالعكس زادهم عذاباً ومعاناة .

قال هامان : أرجو أن يطمئن مولاي الفرعون . . سوف ننكل بقوم موسى . . سنعود إلى سيرتنا معهم في قتل الرجال واستحياء النساء . .

قال فرعون : هذا مهم جداً لتخويف بني إسرائيل وردع المصريين . . لكننا يجب أن نبعث في هذا الخوف بابتسامة ساخرة . .

كيف . ؟ فكر يا هامان . .

قال هامان : فهمت يا مولاي . . سنبعث في المدائن كلها من يسخر من موسى . . ويضحك على آياته . . ويضع ما حدث كله في دائرة الهزؤ الواجب . . سوف يصبح موسى بلا قيمة لقومه . . فقد تعذبوا قبل أن يأتيهم ، ويتعذبون بعد أن جاءهم . . أيضاً سيصبح موسى مثار سخرية الشعب كله .

دخل ضابط له مقامه الرفيع وهمس لهامان:

- إن موسى قد وصل.. وإن عصاه قد نزعت منه.. وقد جاء وحده.

هل آذن له في الدخول؟

فرعون في القرآن [٢٢]

أمر فرعون أن يدخلوا موسى . .

دخل وحده . . بغير عصاه . . كان يرتدي ثوباً من الصوف الأبيض الخشن . . وكان يبتسم ابتسامة رجل شجاع يمر بمحنة . . لكنه لم يكن خائفاً . . كان يحس بصلابة إيمانه وصدق قضيته . . قال فرعون حين دخل موسى :

ـ آه . . موسى مرة ثانية . . ألا ترى يا موسى أنك تشغل الفرعون عن مهامه في حكم مصر . . ماذا تريد هذه المرة . .

قال موسى وهو يتوقف : أنا لا أريد شيئاً . . لقد طلبني الملك الفرعون .

استمع فرعون جيداً لقول موسى وابتسم ابتسامة تقطر بالكراهية .

قال لموسى : لماذا لا تقول الملك الفرعون الإلّه . . لقد حدثتنا عن رب يحكم العالمين . . هل لهذا السبب تقف ضد سلطاني كإلّه . . لقد استدعيتك لأناقشك فيما قلت ، ولسوف أتكلم بمنطق هذا القصر الذي سبق أن تربيت فيه كأمير من أمرائه وابن من أبنائنا . .

إنـك تخـرج النـظام كله يـا مـوسى. . لقـد تهـورت كثيـراً في أقوالك، ولكنني ميال إلى التسامح معك. . أنت في نهاية الأمر تنتمي لهذا القصر الذي تربيت فيه. .

والآن. . أريد أن أسألك سؤالاً. .

ـ من تقول إنه بعثك برسالة إلينا. . ؟

قال موسى: الله رب العالمين هو الذي بعثني. .

قال فرعون: كيف بعثك يا موسى؟

قال موسى: لقد كلمني الرب الجليل في سيناء.

قال فرعون: هل يتكلم ربك؟

قال موسى: نعم. .

قال فرعون: لماذا لم يكلمني أنا مباشرة؟.

لماذا تجاوزني ربـك وكلمك أنت ولم يكلمني أنـا. . أنا فـرعون مصر. . وهـذه الأنهار تجري من تحتي. . أنـا أعـلى سلطة في هـذه المملكة. .

كيف تجاوزني إلهك وأرسل إليك ولم يرسل إليّ. .

يا موسى. . إن القصة التي خرجت بها علينا متهـاوية ولا تكـاد تقف على قدمين. . سوف أسألك سؤالاً آخر يا موسى. .

ـ أين ربك هذا؟. . لماذا لا يظهر لنا؟

قال موسى: هو في السموات. . وفي كل مكان. .

قال فرعون: لماذا كلمك أنت وتجاهلني أنا؟. .

قال موسى وهو ينظر إلى فرعون:

ـ أيها الملك. . إن الله يصطفي من الرسل ما يشاء. . وقد اصطفاني الله. . وقد كلمني الله وأمرني أن أذهب إليك لأبلغك رسالته. . إنني أدعوك يا فرعون إلى رحمة الله. . فإن أبيت فأرسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم. .

قاطع فرعون موسى بقوله: إن ترديدك لهذه الرغبة يأخذ شكل الخيانة يا موسى. . لقد سحرتنا جميعاً في المرة السابقة. . وها أنت الآن بغير عصا ولا سحر. . لقد صبرت عليك أكثر مما ينبغي. .

فرعون في القرآن [٢٣]

قال موسى: لست ساحراً أيها الملك.. إن العصا ليست سحراً من عندي، إنما هي آية من الله.. ولقد أمرني الله أن ألقيها في الوادي المقدس، فلما ألقيتها هناك من يدي تحولت لدهشتي إلى ما تحولت إليه..

لم أكن أنا نفسي أعلم بما ستصير إليه العصا.. لقد فوجئت أكثر مما فوجيء فرعون نفسه..

قال فرعون: يا موسى. ليس هذا جوهر القضية!

قال موسى: ما هو جوهر القضية؟

قال فرعون: سحر العصا، وسحر الخيانة الذي تزعمه أنت في قصة رب العالمين.

قال موسى، ليست العصا سحراً، ولست خائناً فيما قصصته عن رب العالمين.. لقد حدثتك عن الحقيقة..

نهض فرعون واقفاً إشارة إلى انتهاء الحديث.

وظهر مجموعة من الضباط الذي صحبوا موسى إلى حيث أخذ عصاه وعاد إلى قومه..

خلا فرعون بهامان. . وأعد عشاء خفيف للفرعون من الأسماك والجعة، وكان فرعون يشرب إذا أكل. . وكان ينطلق في الحديث إذا شرب وأكل. .

قال هامان: ماذا يرى الفرعون في موسى. . ؟

قال فرعون: لقد سبقتني أنت بالسؤال. . أنا الذي أريد أن أسألك: كيف ترى موسى؟ هل تعتقد أنه مجنون حقاً. . إن الجنون لا يبدو عليه!

قال هامان: هناك جنون هادىء.

قال فرعون: إن أكثر ما يخيفني هو هدوء موسى وصلابته. . وهذه العصا التي يحملها في يده. .

قال هامان: إنني أحمل لفرعون خبراً سيرضيه. .

استطرد فرعون متجاوزاً هامان وهو يقول: وهناك أيضاً يده التي خرجت بيضاء من غير سوء. . أي خبر يرضيني وسط هذه الهموم كلها. .

قال هامان: لقد اتفقنا على أن موسى ساحر عليم.

قال فرعون مقاطعاً: ليس ساحراً. . إنه خائن. .

قال هامان: لا بأس بالصفتين معاً. . ساحر وخائن. . سنعالجه من الجانبين. .

قال فرعون ـ وكأنه عثر على الحل: ـ هامان. . استمع إليّ جيداً. . يجب أن تتوحد مصر كلها أمام هذا الخطر الداهم. .

يجب أن يعتقد جميع المصريين رأياً واحداً.. هو رأيي أنا..
هل فهمت..؟

قال هامان: مولاي.. هذا عملي.. أن أفهم.. إنني أفهم ما قاله الفرعون العظيم.. وأعمل له الخطط والتدابير. غداً تردد مصر كلها ما يردده فرعون.. لن يكون هناك غير رأي واحد.. هو رأي جلالتكم..

وعلى بقية الشعب أن يتنافسوا في الولاء لهذا الرأي الواحد، غير أنني عاتب على فرعون.. لا يجب أن تهتم يا مولاي بموسى أكثر مما ينبغي.. إن هذا قد يؤثر على هضم جلالتك.. وموسى أهون من هذا شأناً..

فرعون في القرآن [٢٤]

قال فرعون لهامان: واضح أنك تحبني يا هامان..

قال هامان وهو ينتفش من فرط سعادته: الحب كلمة ليست معبرة يا مولاي.. إنني أعبدك يا سيدي الفرعون. أعبدك عبادة.

قال فرعون: هذا جميل.. إنك تعيد إلي ثقتي يا هامان.. وهذه هي مهمة الوزير الأول للفرعون..

أن يعيد إلى إلهه الثقة..

قال هامان: نعم.

قال فرعون: هل سمعت قصة الإله الذي يزعم موسى أنه في السماوات. كيف نصل إليه يا هامان..

سكت فرعون قليلاً وراح يفكر ثم عاد يقول:

﴿يا هامان.. ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السماوات فأطَّلِعَ إلى إله موسى.. وإني لأظنه كاذباً..﴾

قال هامان: لا داعي لبناء صرح يصل إلى السماوات..

موسى كاذب بالتأكيد.

قال فرعون: أعرف أنه كاذب.. ولكنني آمرك أن تبني الصرح لكي أرى بنفسي.

قال هامان: أمر مولاي.. سيبدأ بناء الصرح من الغد.. المشكلة كلها أن السماوات بعيدة بعض الشيء.. والصرح سيحتاج إلى مال وعمل..

قال فرعون: خذ من مال الكهنة الذي استولينا عليه، واستخدم بني إسرائيل في بناء الصرح، إنهم قوة عمل بلا أجر.. سيكون شيئاً طيباً أن تستخدم بني إسرائيل أنفسهم في إثبات كذب موسى.

قال هامان: هي فكرة جليلة.. وساخرة.. وعظيمة.. وهازئة، لم ألحظها في البداية ولكن فرعون لاحظها.. إنني أنحني لذكاء سيدي الفرعون.

قال فرعون: أريد أن تصبح قضية بناء الصرح العالي أهم من قضية موسى ذاته.. يجب التشويش على موسى.. وصرف الأنظار عنه.. وتسفيهه.. وتحقيره.. وإذلاله..

قال هامان: صدق فرعون.. المجد والسؤدد لفرعون.

قال فرعون: أنت تردد هذه الكلمة كثيراً.. ما هو السؤدد يا هامان.

قال هامان: هو مجد قد ركب المجد واعتلاه علواً كبيراً..

قهقه فرعون ضاحكاً.. وسأل هامان: قلت لي إن لديك مفاجأة..

قال هامان: نعم.. وهي كفيلة بسحق موسى تماماً.

قال فرعون مهتماً.. لماذا تؤجلها كل هذا التأجيل أيها الغبي ما دامت بهذه الأهمية.

قال هامان: لم أؤجلها يا مولاي.. إنني أتفق الآن مع سحرة مصر ليهزموا موسى.. لقد بالغنا في حجم موسى.. إنه ساحر.. مجرد ساحر.. لنحضر إليه أمثاله من سحرتنا.. وسوف يهزمونه فنستريح منه..

المسألة بسيطة يا سيدي الفرعون..

قال فرعون: أيها الوزير الأول.. إنك قد استحققت رضاء الإله الملك عليك.. إنني مسرور منك.

ركع هامان وأعطافه تنتشي من السعادة.

فرعون في القرآن [٢٥]

بدأت الحملة . .

حملة بناء الصرح العالي . . وبدأت معها حملة تحطيم دعوة موسى . . اتهم موسى وسط الشعب المصري بالجنون، والكذب، وتأليف القصص الوهمية عن إله يحيا في السماوات، كما اتهم بالسحر وتحويل العصا إلى ثعبان . . وهذه حيلة يلجأ إليها أبسط السحرة في مدن مصر . .

ووسط دوامة التهم الملفقة لموسى، راح بناء الصرح يرتفع وسط دوامة من الأناشيد والأغاني والحماس العام، وقدر هامان في نفسه بعد استشارة المهندسين أنه يستحيل بناء صرح يصل إلى السماوات، فاكتفى ببناء جزء من الصرح وأمر بتكملة الجزء الباقي بالأغاني . .

وقدر هامان أن بناء الصرح مسألة تتصل بالدعاية أكثر من اتصالها بهزيمة موسى، ومن ثم فقد تحرك في الاتجاه الصحيح وبعث يستدعي السحرة من جميع أنحاء مصر . . جلس السحرة مع هامان . . أفهمهم هامان أن هناك مشكلة صغيرة تتصل بساحر من بني إسرائيل. ساحر تتحول العصا في يده إلى ثعبان . . أفهمهم

هامان أن هـذه المشكلة تؤرق فرعـون، وراح هامـان يفيض في شرح المشكلة حتى ملّ السحرة. . كان يتحدث طـويلاً دون أن يعـرج على الأجر. . أجرهم إن غلبوا له موسى . .

وحين انتهى من كلامه تشجع أحـد السحرة وأشـار إلى مسألـة الأجـر. . ولكن هامـان ثـار عليـه وأدلى بكلمـة تفيـد أن من السفـه التحـدث عن الأجر إذا تعلق الأمـر بخدمـة تقدم لفـرعون. . يكفي رضاء الفرعون. . لم يعجب السحرة هذا الكلام وانصرفـوا تعساء. . بعد أن حدد لهم هامان موعداً للقاء فرعون. .

انصرف السحرة وهم يتخافتون بينهم. .

قال ساحر من الوجه البحري: إن كلام هامـان يشبه السمـك في المياه، لقد اطعمهم من البحر بغير أن يصطاد لهم سمكة واحدة.

وقال ساحر من الوجه القبلي: إن هامان فيما يبدو بخيـل جداً، ويجب فتح الموضوع مع فرعون في لقائه. .

قال ساحر من عين شمس: الصراحة أقصر الطرق للوصول، وسوف أحدث الفرعون في موضوع الأجر. .

وقال ساحر آخر مثلاً عامياً يفيد أن من يستحي من بنت خـاله لا ينجب منها عيالاً. .

لا داعي إذن للحياء. .

سوف يفتحون موضوع الأجر مع فرعون. . يجب أن يسحـروا هامان حتى يظل صامتاً ريثما تنتهي مفاوضاتهم مع فرعون. . .

تحدث السحرة في كل شيء. . ولم يعرجوا للحديث عن موسى

نفسه . . كانت هزيمته أمراً لا يستحق عناء المناقشة .

واقترب يوم الزينة . . وحـدد فرعـون لموسى مـوعداً ليلقى فيـه سحرة مصر . . وذهب السحرة إلى لقاء فرعـون التاريخي . . بعـد أن اتفقوا على أن يسحروا هامان حتى لا يدري رأسه من رجليه . .

فرعون في القرآن [٢٦]

دخل السحرة على فرعون وهامان . .

سجدوا له ثم رفعوا هاماتهم أمامه . .

قال هامان: سيدي ومولاي فرعون . . هؤلاء هم سحرة مصر . . أعلم من فيها بفنون السحر وعجائبه وغرائبه . . وقد أرسلنا لاستدعائهم من جميع أنحاء مصر . .

وقد . . وقد . .

انحبس لسان هامان . . كان أحد السحرة قد سلط على هامان منذ اللحظة التي دخلوا فيها إشعاعاً قوياً من عينيه . . وراح يقرأ تعويذة وثنية تربط لسان من تقرأ عليه . وتؤدي لذهولته مؤقتاً .

سكت هامان مسحوراً وتوقف عن الكلام ، وتقدم فرعون من السحرة وقال لهم :

ـ هل حدثكم هامان عن مهمتكم المقدسة . . ؟

قال كبيرهم : أي مهمة يا مولاي؟

قال فرعون : هزيمة موسى . . هذه هي مشكلتنا الكبرى اليوم .

قال كبير السحرة: هذه ليست مشكلة يا مولاي.. هذا أمر سهل.. هناك مشكلة أخرى.

قال فرعون: ما هي المشكلة إذن؟

قال كبير السحرة: الأجر..

لم يفهم فرعون أي شيء يقصدونه.. سأل السحرة مستفهماً عما يرمون إليه.

قال كبير السحرة: إن لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين..

قال فرعون: ﴿نعم.. وإنكم لمن المقربين..﴾

من مكانه في القاعة، كان هامان يرقب المشهد وهو يحس بالحنق والغيظ..

كيف يفتح السحرة الحثالة موضوع الأجر مع فرعون.. لقد تحدثوا إليه في نفس الموضوع فانتهرهم فسكتوا.. وظن أنهم قد فهموا أنه من العيب الشديد فتح موضوع تافه كهذا مع ملك البلاد وسيدها وإلهها.. لكن هامان كان يحس أنه لا يستطيع أن ينطق.. إن لسانه قد تورم في حلقه.. وفي فمه إحساس بأنه أكل شجرة شوك بأكملها.. فهو يريد أن ينطق ولكنه يجد نفسه أكسل من أن يتكلم.. اطمأن السحرة لموضوع الأجر.. وبدأوا يحدثون فرعون ألا يعمل أي حساب لموسى..

سوف يهزمون له موسى ويكسرونه نصفين مثلما يكسر العملاق عوداً من الحطب الجاف..

اطمأن فرعون للسحرة، واطمأن السحرة لفرعون، وقرروا

الانصراف، ونظر كبيرهم إلى الساحر الذي سحر هامان وربط لسانه في سقف حلقه، وعاد الساحر يقرأ تعويذة أخرى فانفك سجن هامان. . كان السحرة ينصرفون حين سأل فرعون هامان:

ـ ما رأيك فيهم يا هامان؟

قال هامان: كلاب يا مولاي. . إنهم كلاب جائعة إلى الأجر.

فرعون في القرآن [٢٧]

اقترب يوم الزينة.

كانت مصر كلها قد تهيأت له بسبب الدعاية القوية التي قام بها هامان وسط صفوف الشعب.. أصبح الشعب المصري كله على رأي واحد هو رأي الفرعون. أطلق الساحرون في القصر الفرعوني آلاف النكت عن موسى، وصارت السخرية منه هي أسلوب الولاء لفرعون، وهي أسرع طريق إلى قلبه..

وتحول موسى إلى ضحكة واحدة هازئة تجلجل في صدور المصريين وعلى ألسنتهم.. أما قوم موسى فقد عوملوا طبقاً لتوجيهات هامان.. وهي توجيهات كانت تقضي بتعذيب كل من يؤمن لموسى أو يتبع دعوته أو يتقبل مجرد التقبل فكرة خروج بني إسرائيل من مصر..

. . . .

﴿فما آمن لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ من قومه على خوف من فرعون ومَلَإِيْهِمْ أن يفتنهم، وإن فرعون لعالٍ في الأرض، وإنه لمن المسرفين﴾. يونس ٨٣.

. . . .

وتعرض قوم موسى لعذاب جعل وجود موسى بينهم شيئاً يشبه العدم . . ورويداً رويداً بدأت الأحلام تنطفىء في قلوبهم حول الخروج . . وأدرك موسى أن قومه قد فتنوا . . ووجه إليهم قوله : ـ

﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ .

يونس ٨٦ .

كان هذا الدعاء هو أقصى ما في طاقة المؤمنين من قوم موسى . . كان سلاحهم الوحيد أمام بطش الفرعون هو الدعاء .

. . . .

وجاء يوم الزينة . .

بدا واضحاً قبل حلول اليوم أن موسى قد انكسر وهزم، وأن فرعون قد غلب وانتصر . .

وحشر الناس ضحى . . ساقهم رجال الحرس إلى أماكنهم في الساحة الهائلة التي أعدت لشهود انكسار موسى نهائياً . .

خصص أبرز مكان لفرعون وكبار قومه، وكانت تظله مظلة من الحرير الملون لتقي رأس فرعون من حرارة الشمس

وخصص مكان لموسى وهارون وبعض وجوه قومه . .

وخصص مكان للسحرة . .

وكانت هناك ساحة هائلة احتشد فيها المصريون . .

هلل الناس حين وصل السحرة . . وهللوا حين وصل

فرعون . . وساد صمت ثقيل حين وصل موسى . .

قال هامان وهو يتقدم إلى الساحة ويشير إلى موسى :

ـ إن هـذا الساحـر الكذاب الـذي أنكـر الجميـل ولم يخضـع للملك الإله قد جاء يتحدى فرعون مصر . . وقد أحضرنا له السحرة لـيردوا عليـه . . وسنعلم اليـوم من منّـا الكـاذب ومن منّـا عـلى الحق لنتبعه . .

عاد هامان إلى مكانه .

فرعون في القرآن [٢٨]

تقـدم السحرة من مـوسى وقالـوا لـه: ﴿إمـا أن تلقي وإمـا أن نكون أول من ألقى﴾..

قال موسى: ﴿بل ألقوا﴾.

قال السحرة: ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾.

قـال موسى: ﴿ويلكم.. لا تفـتروا على الله كـذبـاً فيسحتكم بعذاب﴾..

تراجع السحرة إلى الخلف، ثم تقدموا من الساحة الخالية التي أعدت للمباراة.. وألقوا حبالهم وعصيهم..

وامتلأ المكان بالثعابين فجأة..

حبس المصريون أنفاسهم ثم انـطلق مباحث الفـرعون وعيـونه الذين اندسوا بينهم بإطلاق الهتافـات لفرعـون.. ومن ثم فقد تحـول الحشد المجتمع إلى زئير هائج من الفرح..

نجـح السحرة أن يسحـروا أعين النـاس ويسترهبـوهم وجاءوا بسحر عظيم..

هلل المصريـون. . وانسعت ابتسامـة فرعـون، وحدث نفسـه قائلاً: إن قصة موسى قد انتهت. . وأشار إلى رجال الحرس فـاستلوا سيوفهم وهتفوا بعزته. . أما موسى فكان يقف مع هارون في مواجهـة هذا الجمع الحاشد. .

وصنعت هتافات الناس ضد موسى أثرها المنشود. .

أحس موسى بالخوف في قلبه، وتـأمل حبـال السحرة وعصيهم وهي تسعى أمامهم وأمامه كالثعابين. .

وعلم رب العـالمين أن مـوسى خائف. . وأوحى سبحـانه إليـه ﴿لا تخف، إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾. .

. . . .

زايل موسى الخوف. . ورفع عصاه وألقاها من يده. .

لم تكـد عصـا مـوسى تلمس الأرض حتى وقعت المعجـزة، وتحـولت العصا إلى ثعبـان تقدم نحـو ثعابـين السحرة وبـدأ يلتهمهـا واحداً بعد الآخر.

بعد ثوان قليلة كـانت الساحـة خاليـة إلاّ من ثعبان مـوسى. . وتحرك الثعبان نحو موسى فمد يده إليـه، وعاد الثعبـان سيرتـه الأولى كعصا.

وقع سكون مخيف. .

أدرك السحـرة أنهم ليسوا أمـام ساحـر، إنهم سادة السحـر في زمـانهم، وليس هذا الـذي جاء بـه موسى هـو السحـر. . هـذا شيء

خارق. . هذه آية من رب العالمين. وألقى السحرة سجداً وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون. .

وتحرك اثنان بسرعة البرق. . هامان وفرعون. .

هرع هامان وهو يصرخ: المؤامرة. . أيها الحرس. . اقبضوا على السحرة. .

وقال فرعون وهو يندفع نحو السحرة:

ـ كيف تؤمنون به قبل أن آذن لكم. . إنها مؤامرة. . ﴿إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾.

فرعون في القرآن [٢٩]

اضطرب الجو حين آمن السحرة برب موسى وهارون، ورأى فرعون أن الأمر يفلت من يده، وصرخ هامان يشير إلى مؤامرة. .

وأمسك فرعون بالخيط. .

وتقدم كبير السحرة إلى فرعون وقال: سيدي الفرعون. . أقسم لك بعزة فرعون أنني سوف أخلص لك القول. . ليس ما جاء به موسى سحراً. . إنما هو الحق من رب العالمين. . وأنا كبير السحرة في مصر وأقول لك أن هذا ليس سحراً. . هذا أمر خارق. .

قال فرعون مقاطعاً: اخرس أيها الكلب. . أنت الذي تآمر مع موسى، أنا أعرف كل شيء. . لقد اتفقتما. . كم أعطاك موسى من الأجر لتسجد لإلهه. . ؟

تدخل السحرة لنصرة كبيرهم وحدثوا فرعون إن ما جاء به موسى ليس هو السحر، إنما هو آية من الله. .

وأصدر فرعون أمره بصلب السحرة في جذوع النخل وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف. .

واستسلم السحرة لمصيرهم وقالوا لفرعون:

- ﴿اقض ما أنت قاض.. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا..﴾

ثم ختم السحرة حوارهم مع فرعون بدعاء تجاوزوا به فرعون وتوجهوا به إلى الله قالوا ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين..﴾

ويدأ تنفيذ الأمر الفرعوني على الفور.. وصلب السحرة.. وقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.. ووقع هذا أمام الشعب المصري وبني إسرائيل.

كان الشعب المصري يتفرج على ما يجري أمامه.. أدرك الشعب بفطرته أن موسى صادق، لقد سجد له السحرة، والسحرة هم أعلم الناس في مصر.. إذا كان العلماء قد اتفقوا على أمر، فهذا يعني أنه صحيح.. كيف يصلبهم فرعون.. بأي حق.. ولماذا..؟

ذابت هذه الأسئلة كلها في مشهد صلب السحرة وتقطيع أيديهم وأرجلهم.. وقد تمّ هذا المشهد أمام الشعب المصري كله..

كان المشهد في حد ذاته كافياً لخلع القلوب وملئها بالخوف.. وأوحى هامان إلى أتباعه أن ينشروا بين الناس قصة المؤامرة التي وقعت بين موسى والسحرة.. وكيف اتفقوا معاً على هزيمة فرعون.. ولم يستسغ الشعب المصري قصة المؤامرة، ولكنه كان محكوماً بإرهاب مطلق يقيد حركته.. وخوف داخلي يشل إرادته.. كان مغلوباً على أمره..

ولم يأت مساء هذا اليوم حتى اجتاحت مصر من أقصاها إلى أدناها موجة إرهاب جديدة..

إرهاب قام به رجال هامان.. كان الهدف منه تخويف المصريين وشل حركتهم.. كان بنو إسرائيل مشلولين بالخوف، وها

قـد جـاء دور الشعب المصري ليقـاسم بني إسرائيـل تجــربـة الخبــز المغموس في الخوف، وكان فرعون قد قرر أن يهزم المصريين مثلما هزم بني إسرائيل.

فرعون في القرآن [٣٠]

عـاد فـرعـون إلى القصر الملكي بعـد أن شهـد بـدايـة صلب السحـرة، عاد يـرتعش من الغضب، أمر بعقـد اجتماع عـلى أعـلى المستويات. . وانعقد الاجتماع على الفور. . وفي اللحظات الأولى من الاجتماع، طرح فرعون فكرة قتل موسى على بساط البحث. .

قال: **﴿ذروني أقتل موسى، وليدع ربـه، إني أخاف أن يبـدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾.**

حضر هـذا الاجتماع رجـل مؤمن من آل فرعـون، وكان هـذا الـرجل شيخـاً حكيماً معـروفاً بعلمـه في التاريـخ والأمم، وكان هـذا الـرجل يمثـل صفوة المفكـرين المصريين والمثقفـين. . كما نقـول بتعبير عصرنا اليوم. . وقال هذا الرجل كلمته. .

. . . .

﴿وقـال رجل مؤمن من آل فـرعـون يكتم إيمـانـه. . أتقتلون رجلاً أن يقول رَبِّيَ الله، وقـد جاءكم بـالبينات من ربكم، وإن يـكُ كاذباً فعليه كذبه، وإن يكُ صـادقاً يصبكم بعض الـذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، يا قـوم لكم الملك اليوم ظـاهرين في الأرض، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾.

قال فرعون: ﴿ما أريكم إلّا ما أرى.. وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد﴾.

....

كانت الفكرة التي طرحها الأمير المصري الحكيم تقول أن موسى قد جاء بالبينات.. جاء بالدليل على صدق دعوته، فإذا كان كاذباً فعليه كذبه، وإذا كان صادقاً ـ وهذا هو الاحتمال الأرجح ـ فإن هذا يعني أن عليهم أن يحذروا أي مساس بموسى، وهكذا تحدث الأمير المصري وبسط حجته، وأشار إلى أحداث التاريخ القريب والبعيد، واستخلص عبرته ووضعها أمام أنظار فرعون، وكان الأمير المصري الشيخ يدير حديثه كله انطلاقاً من نقطة أساسية.. هي اعتباره أن موسى صادق، وقد جاء برسالة من الله..

وفجر الأمير بكلمته خلافاً حاداً في القصر الفرعوني، فقد تدخل هامان وقاطع الأمير الذي يكتم إيمانه قائلاً:

ـ إن موسى كاذب وليس مرسلاً من الله، لأن إلّه مصر الوحيد هو الفرعون.. وأخذ فرعون جانب هامان، وانضم لهذا الجانب كثيرون ممن حضروا الاجتماع التاريخي، ولكن بقي الأمير ومعه شيخان حكيمان انضما إلى رأيه.

وحسم فرعون الخلاف برفض آراء الأمير المصري تماماً.. وكان رفض آرائه يعني رفض آراء المثقفين المصريين..

وهكذا صلب فرعون علماء مصر وهم السحرة حين آمنوا بالله، وهزم المثقفين المصريين حين استبعد رأيهم..، وحين تمّ لفرعون النصر على العلماء والمثقفين.. صارت مصر كلها في جيبه..

وصـار حراً في تـوجيهها الـوجهة التي يـريدهـا . . انتهى الأمر وضاعت مصر حين ضاع علماؤها واستبعد مفكروهـا، وصارت عـلى رأي واحد هو رأي فرعون .

وفكر فرعون في نفسه ـ لشد ما أنا أحمق . . لماذا عقدت اجتماعاً لمناقشة فكرة قتل موسى، لماذا لم نقتله أولاً، ثم نعقد اجتماعـاً لمناقشـة آثار الفكرة بعد ذلك؟

المشهدُ الخِتاميّ [٣١]

سنقفز سطوراً كثيرة لنأتي إلى المشهد الختامي . .

فرعون في قصره ذات صباح مشمس . . يتأمل الزهور في حديقته ويستشعر دفء الشمس . . يدخل هامان مندفعاً وهو يحمل خبراً مزعجاً يحاول تخفيف وقعه على فرعون . . الخبر يقول إن موسى خرج بقومه ليلة الأمس تحت جنح الليل . . وقد أمر هامان رجاله بإعادتهم إلى مصر . .

فرعون يرى أن الأمر يحتاج إلى الجيش فيأمر بتحرك الجيش وإعداد مركبته الملكية . . ونقترب أكثر من المشهد الأخير . .

فرعون في مركبته الحربية وموسى وقومه على مشارف النظر، والبحر أمامهم عائق . . ولا أمل في عبوره .

فرعون يستريح في خيمته الحريرية التي أعدت على عجل لتكون مقراً للقائد، الأعلى، قلبه مطمئن إلى وقوع بني إسرائيل في يده .

يدخل ضابط إلى الخيمة، يسجد لفرعون ويقول:

ـ مولاي الفرعون . . لقد انشق البحر أمام موسى وقومه وهم يعبرونه الآن . .

سأل هامان: هل أخطأت السمع، أم أخطأت أنت التعبير. . ماذا تقول؟. . كيف ينشق البحر؟.

قال الضابط: أقسم بعزة فرعون أنني أحكي ما حدث. . !

قال فرعون ساخراً: ألم تشرب قدراً إضافياً من الجعة. . ألست سكراناً قليلاً. .

حسم هامان الموقف وأمر بإرسال ضابطين إلى البحر، واختير الضابطان من بين الضباط المنضبطين الذين لم يعرف عنهم شرب الجعة، وعادوا بنفس القصة وأمر فرعون الجيش المصري أن يتقدم ويخترق البحر وراء موسى. . وأعدت مركبة الفرعون الذهبية.

ركب فرعون مركبته وتقدم وهو يدمدم: هل سحر موسى البحر؟. .

كان يحس داخله بحقد كافر يمتطي روحه. . كان يكره الله ويريد الجلوس في كرسيه. .

وكانت فكرة قتل موسى مسيطرة على عقله تماماً. .

ومضى يفكر أن عدم قتل موسى كان هو السبب الأصلي الذي تداعت بعده الأحداث حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. .

لو أنه قتله في اليوم الأول الذي جاء فيه موسى بقصته لما وقع ما وقع. .

كان هامان يقف جوار فرعون في مركبته الحربية. .
كان هو الذي يقود المركبة. .

ومضت المركبة تجري بجلال جنائزي. . ثم دخلت في الطريق

اليابس الذي شقته عصا موسى في البحر . .

نظر فرعون إلى الطريق فوجده يابساً . . ونظر إلى جانبي الطريق فوجد الأمواج، أمر أن يتقدم الجيش فتقدم . .

ونظر فرعون إلى الأمواج التي تتلاطم حول الطريق وأحس بالخوف . .

أراد أن يأمر المركبة بالرجوع ولكن الوقت كانت متأخراً . .

وأقبلت الأمواج . . تهوي على وجهه والتأم البحر، وضاع الطريق،

وأسدل ستار مائي على المشهد.



يحتل «فرعون» مكاناً بارزاً في تاريخ الطغاة في الأرض. ويمكن القول دون تردد إنه قد احتل مكانه هذا بجدارة واقتدار.. إنه يتقدم قومه يوم القيامة إلى النار.

كان طاغية مركّباً وجبّاراً طوال الوقت.

كان ملكاً على مصر حين كانت مصر أكبر دولة في الأرض.

لقد استكبر وعلا في الأرض، وابتلع الشعب المصري كله في جوفه.. على امتداد مصر كلها لم يكن هناك رأي سوى رأيه هو، ولا كانت هناك إرادة غير إرادته هو.. ذاب الشعب المصري كله في إرادة فرعون، وصار فرعون هو مصر، وتحولت مصر إلى فرعون.

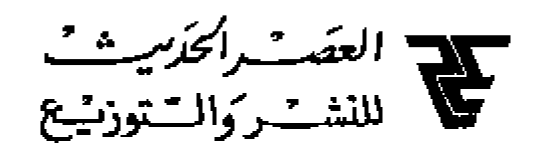
وهذا أول ما يفعله استبداد الطغاة بالشعوب..

إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته كإنسان.

وهذا ما فعله فرعون بشعب مصر.

كان ينوب عن مصر كلها ويقوم مقامها..

وهذا هو الاستبداد في صورته القصوى.



الغلاف: سمير زيد